الغـــريـــــب

محمود الكومي

اسم الكتـــاب : الغـــريـــــب

تـأليـــــــف : محمود الكـومي

تصميم الغلاف : فارس إيهـــاب

مراجعة لغـوية : هيـــام فهيـــم

إخـــراج فنـــي

رقـــم الإيـــداع : 2020 / 26287

الترقيم، الدولي : 978-977-835-173-6

الناشـــــــر : اسكرايب للنشر والتوزيع

002 01005079256

Scribe20199@gmail.com

اسكرايب للنشر والتوزيع – scribe2019

اسكرايب للنشر والتوزيع – scribe2019

جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار اسكرايب للنشر والتوزيع

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة

بأي شكل من الأشكال

ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

كل الحقوق محفوظة

اسكرايب SCRIBE

دق الظلام طبول حربه، فبدأت قواته هجومها، انسحبت الشمس أمام قوتها لتعيد تنظيم صفوفها ثم تعاود هجومها فتهزمه كما هزمها.
وسط تلك المعركة غريب بثلاثينيات عمره يقف عند مفترق لثلاثة طرق، رسمت الأشجار الكثيفة حدود اثنين منهما، وثالثهما يخترق سهلًا ممتدًا لمرمى البصر بحشائشه الخضراء القصيرة وأشجاره المثمرة التي تفصله عن بحيرة صافية، تنعكس السماء فوق مياهها.
يرتدي بنطالًا قصيرًا خيط من قماش خشن بلون أسمر، يغطي من خصره حتى أسفل ركبتيه قليلًا يعلوه قميص بلون بنطاله، ممزق عند الصدر فتظهر عضلاته بارزة، متناسقة، حول خصره سيف يتخذ من غمد أسود مسكنًا له، تسيطر على وجهه علامات من حيرة لكنها لم تنلْ من صرامة قسماته، تتأرجح عيناه بينهم لا يدري بأيهم يبدأ، طأطأ رأسه كصحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء ثم زفر غاضبًا، لتصارع الثلاثة بها حول أيهم يفوز بقراره.
طرقت أذنيه صرخات يتردد صداها في المكان حوله، استدار صوب مصدرها فرأى فتاة تهرب وخلفها تسعة من الجنود يهرولون خلفها، أيقظت صرخاتها رجولته فهرول لإنقاذها، لم يفكر في سرعته الكبيرة وهو يرى الأشجار أشباحًا تمر بجانبه أو بتلك الأميال الثلاثة التي تفصله عنها.

ظلا يهرولان حتى وصلها فاحتمت به طالبة نجدته، أتاهم الجنود، وقفوا أمامهم يلتقطون أنفاسهم المتقطعة فاتخذت من جسده درعًا يقيها غضبهم.

نظر إلى تلك الدروع الحديدية التي تغطي صدورهم وأجزاء من أيديهم وأقدامهم بلونها الأسود القاتم، ميز وسطهم قائدهم برأس النمر المنقوش فوق درع صدره برقائق من الذهب. ترتسم فوق وجوههم قسوة يغذيها غضب يتطاير من عيونهم، أجسادهم متحفزة للانقضاض على فريستها.

استل القائد سيفه وأشار له به وقال صائحًا:

– أنت، أعطنا الفتاة وإلا روينا ظمأ سيوفنا من دمك.

صرخت الفتاة وهي تهز يديه، وتسيل من عينيها دموع كثيفة ثم تقول:

– لا، أرجوك، لا تدعهم يأخذوني.

نظر إليها، فرأى خوفها بعينيها يناديه ويناجيه ألا يفعل ما طلبوا، ربت فوق كفها ونطق بكلمات عززت من دفاعاتها أمام هجوم خوفها فقال:

– لا تخافي، لن يجرؤ أحدهم على لمسك.

أشعلت كلماته غضب القائد، فأمسكت نيرانه بقلبه، فصاح في أحدهم قائلًا:

– أحضرها.

تقدم الجندي صوبهما، باسطًا يده، همَّ أن يمسك بها من ذراعها ولكن الغريب أمسك بيده، ثم نظر إليه في عينيه وصاح به غاضبًا:

– لقد وعدتها بألا يمسها أي منكم.

لطمه بيده الأخرى على رأسه فسقط الجندي مرتطمًا بالأرض دون حراك، تتدفق الدماء من فمه وأنفه. زاد تحفزهم وسط زمجرات من غضب، ينتظرون، لا يتحركون ككلب يُؤمر ويُنهى بأمر صاحبه، فصاح القائد غاضبًا بصوت جهوري:

– اقتلوه.

أشار للفتاة المتأبطة بذراعه لتتركه وتتراجع قليلًا عندما وجدهم يقتربون منهم بخطوات حذرة، بطيئة، ينظر كل منهم إلى الآخر وسط رسائل عيونهم، انقسموا إلى مجموعتين، أربعة عن اليمين وثلاثة عن اليسار، لم يستل سيفه ولكنه أطلق على من في يساره كرة نارية كوَّنها بحركة من يديه المجردتين، طارت الأجساد ثم ارتطمت بالأرض وسط صراخ وعويل سرعان ما انقطع عندما فارقت أرواحهم أجسادهم المتفحمة.

سادت لحظات صمت وُلدت من رحم الصدمة، تخللتها نظرات حائرة، زائغة، تتطاير من عيونهم، سكنتها فارتعدت معها أوصالهم وانسحبت صرامتهم تاركة مواقعها لأخرى من خوف وفزع.

تملك الخوف من أحدهم فاستدار هاربًا لينجو بحياته من نهاية محتومة، قابله قائده بسيفه يخترق أحشاءه ونظرة غاضبة يتحدى بها ذلك الغريب الذي قابلها بأخرى ساخرة، قال القائد مهتاجًا:

– اقتلوه وإلا قتلتكم بيدي.

هجم الباقون عليه فاستل سيفه وبدأ الصراع بين هجوم ودفاع، يهاجمون بسيوفهم فيصد ضرباتهم ويهجم مباغتًا فيصيب ذراعًا، قدمًا، أو ظهرًا. سقطوا أرضًا وسط آلامهم، فسكن ناظرًا إليهم وإلى قائدهم الذي تدور عيناه بين جنوده وهو يراهم بين قتيل، جريح، وآخر يلفظ أنفاسه الأخيرة.

قال الغريب ساخرًا وهو يشير إلى القائد ملوحًا بسيفه:

– هل ما زالت سيوفكم ظمأى؟!!!

أججت كلماته نيران ثأره واشتعلت به نيران الغضب، فملأت روحه وفاضت من عينيه، فهجم عليه بضربة أودعها كل قوته فتلقاها الغريب بسيفه، بلغ التحدي أشده عندما التقت عيناهما، فقال له الغريب ناصحًا:

– عد من حيث أتيت.

رفع لكلماته رايات العصيان ثم عاود هجماته التي اكتفى الغريب بصدِّها، فلا يريده قتيلًا كما لم يرد من مات منهم، ولكنه صراع للحياة، فمن أرادها يجب أن يعيش ويموت غيره، ظل يدافع فلا يهجم أو يصيب، رغم عديد المرات التي لاحت لإصابته،

فاكتفى بضربات من ظهر سيفه أمطر بها جسده، ثم باغته دافعًا إياه في صدره فسقط القائد أرضًا، وضع الغريب سيفه فوق رقبته فوأد محاولته في الحصول على سيفه الملقى بجواره.

قال له الغريب ساخرًا، وهو ينظر إلى الجنود الممددين أرضًا:

– سأتركك حيًا، فلقد روت دماءهم ظمأ سيفي.

ثم جرح وجه القائد بطرف سيفه، وقال له في حدة:

– هذه ستذكرك طوال حياتك بعدم مهاجمة النساء مرة أخرى.

استدار إلى الفتاة خلفه فوجدها تنظر إلى الأجساد الملقاة أرضًا، لا تصدق عيناها ما ترى، كما لم يصدق عقلها كل ما جرى، تحتل الدهشة أرجاء وجهها، أيقظها نداؤه لها من دهشتها حين قال وهو يشير لها لتأتي إليه:

– أيتها الفتاة.

جاءته ثم سارا معًا مبتعدين عن المكان لبضع خطوات، فإذا به يسمع صوت القائد وهو يقول بصوت جهوري غاضب:

– ستندم.

استدار إليه فوجد خنجرًا طائرًا صوب صدره، اخترق كفه عندما حاول أن يصده بيده، صرخ القائد قبل الفتاة لرؤية دمائه تسيل، عند اصطدام كرة نارية به فحوَّلته إلى رماد.

نظر إلى يده والخنجر جزء منها، والدماء تسيل من حوله، أمسكت الفتاة بيده ونزعت عن رأسها حجابًا ألجم انطلاق شعر

حريري استعار لونه من لون شمس المغيب، ربطته حول كفه وهو يراقبها، تتأرجح عيناه بين الجثث حوله وبين يديه ثم يتساءل متعجبًا ومتحيرًا محدثًا نفسه:

– لماذا لا أشعر بأن شيئًا قد اخترق يدي؟!!!!

توقفت أسئلته حينما حدثته الفتاة بكلمات من خوفها وقلقها عندما قالت له ناصحة:

– يجب ألا نخرج الخنجر حتى لا يزيد تدفق الدم، اتركها هكذا حتى نصل قريتنا.

نظر إلى يده ثم سألها متحيرًا:

– شكرًا لك، لماذا كانوا يلاحقونك؟!!

أشاحت وجهها عنه ناظرة إلى الأفق أمامها، صمتت قليلًا ثم قالت بكلمات من حزن وحسرة يسكنان قلبها:

– بكل عام في يوم مولد ملكنا يأتي جنوده ويختارون أجمل فتاة في مملكته لتكون عروسًا لليلتها، ولذلك هربت.

عندها تحول بصره عن النظر أمامه كقاعدة يسير وفق أحكامها إلى وجهها، فكانت جميلة، هادئة، صفاء السماء فوقهم ينعكس فوق صفحة وجهها الذي هو القمر في ليلة التمام مع مسحة من لون أحمر زين وجنتيها، استعارته من لون جلبابها الأحمر المزين بورود بيضاء وأخرى سوداء.

نظرت إليه فالتقت عيناهما فتشابكت الأسهم، اخترقت سهامه فؤادها فخرت له أسيرة، وتاه هو في أعماق عينيها، والتبس أمره بهما فسأل نفسه متحيرًا:

– هل استعارت عيناها لونيهما من لون الأعشاب حولنا أم فعلت الأعشاب؟!!!

أشاحت بوجهها عنه عندما صعدت دماء خجلها، فازداد احمرار وجنتيها، ثم سألته وهي تبتسم: ما اسمك؟؟؟

طأطأ رأسه، هزها يمينًا ويسارًا ثم قال في حسرة:

– لا أعلم أي شيء عني.

صدمتها إجابته فتوقفت ثم استدارت له، وقالت متعجبة:

– ألا تعلم أي شيء عن ماضيك؟!!!

أومأ برأسه ثم زفر زفرة خيطت بحزنه، وقال: نعم.

سألته متعجبة: وهذا السحر؟!!!

أجابها متهربًا: إنها قصة طويلة أقصها عليك فيما بعد.

ابتسمت فظهرت أسنانها كحبات لؤلؤ متراصة، ثم قالت:

– لدينا الكثير من الوقت حتى نصل قريتنا.

قال بعد لحظات من صمت: حسنًا.

بدأ قصته بعد أن صعد قطار ذكرياته.

****

أبدأ حكايتي من اليوم الذي كنت أجلس فيه مع رجل من أهل قريتي، أمام دكانه، طاعن بالسن، أجهد الزمن وجهه، ونال منه، فتجعد وترهل جلده، اشتعل الشيب برأسه ولحيته، أبتاع منه بعض الفاكهة ورائحتها تنتشر بالمكان حولنا، فسألته سؤالًا يؤرق مضجعي، وأصبوا إلى أن أروي ظمأ عقلي بماء معرفته:

– لقد سمعت بأن وحوشًا قد هاجموا القرية في وقت سابق...

تنهد العجوز وصمت هنيهة ثم هز رأسه يمينًا ويسارًا، نظر إليَّ فرأيت بعينيه حزنًا دفينًا يشق طريقه للخروج من مخبئه، ثم قال:

– بإحدى ليالينا كنا نتحلق النار – كعادتنا دائمًا – منا من يغني، يرقص ويشرب الخمر، والمكان حولنا غارق وسط ضحكات قلوبنا وسعادة وجوهنا، انقطعت ضحكاتنا ووقفنا ينظر كل منا إلى الآخر، عندما رأينا الضباب أتى مهاجمًا ومستعمرًا للمكان حولنا، فتحولت إلى همهمات أطلقها أصحابها يستفسرون بها عما يحدث، احتضن الضباب أجسادنا، فلم نستطع أن نرى أيدينا حينما اشتدت وطأته، فغلف المكان حولنا وغرقنا وسط ظلماته.

انطلقت صرخات رجال ونساء القرية ترعد بآذاننا، لم نميز لها مصدرًا واحدًا، فكانت بكل مكان حولنا، عم المكان هرج ومرج

فهرولنا جميعًا على غير هدى، وسط ظلمات أعيننا، فلا ندري بأي اتجاه النجاة، فبكل مكان نجد الموت مكشرًا عن أنيابه، وباسطًا ذراعيه ينتظرنا، بدأ الضباب يتبدد وكفت الصرخات فحط الصمت رحاه بالمكان، فخرجنا من جحورنا لنرى ما أخفاه الضباب وراء ستاره.

رأيت حزنه خرج منفضًا عنه رماد سنين محبسه، فبسط سطوته على أرجاء وجهه وعينيه، صمت قليلًا ثم أردف قائلًا، وهو يصارع دموعه:

– رأينا دماء كثيرة، تلطخ الأرض والجدران، أياد وأقدام ملقاة هنا وهناك، ورؤوس بجوار أجسادها بدون لحمها.

صمت العجوز قليلًا محاولًا لملمة شتات نفسه وأفكاره، ومقاومًا لدموع بدأت تتشكل بعينيه، وأنا بجواره تتصارع هواجسي بعقلي، فلا أدري لماذا لست حزينًا أو خائفًا مما يقول، كأنما انفصلت عني مشاعري أو هي تغط في سبات عميق، لن تفق منه الآن. هدمت جدار الصمت الذي شيده العجوز من حزنه بسؤالي غير المبالي لحالته:

– هل هجموا مرة أخرى؟

طأطأ رأسه ثم قال متنهدًا في آسى:

– نعم.

رفع رأسه ثم أردف قائلًا:

– ولكن هذه المرة قد استعملنا بعضنا للحراسة، يجلسون فوق أماكن مرتفعة فإذا رأوا الضباب حذرونا فنهرول إلى مخابئنا.

سألته متلهفًا:

– هل نجح ذلك؟

أغمض عينيه ثم أرجع رأسه للخلف، لترتكز على الجدار الخشبي لدكانه، ثم قال في نبرة يغلفها حزنه:

– بعضنا ولكن البعض الآخر لم يفعل، فكنا نسمع الصرخات والاستغاثات تخترق جدران مخابئنا، تصم آذاننا فترتعد لها قلوبنا وأرواحنا، فهجرنا السهر ومنعنا التجول ليلًا.

سألته مستفهمًا:

– هل تعلمون أين ذهبوا أو من أين أتوا؟؟؟

تنهد بشيء من حزن علق بصوته، فقال:

– لا نعلم ولا نريد أن نعلم.

سألته بمسحة من غضب بدأ يلوح في الأفق:

– إن كنتم لا تعلمون أي شيء عنهم، فكيف تقولون بأنهم كانوا يسكنون منزلي؟؟؟

عدل من جلسته على تلك الأريكة الخشبية سوداء اللون، ثم قال:

– بأحد الأيام كان هناك طفل يلعب بعيدًا عن منزله، قاده حظه العاثر إلى التبة التي عليها منزلك، فرأى عظامًا وجماجم بشرية

وبجوار إحداها وجد قرطًا ذهبيًا لوالدته المختفية منذ آخر هجوم ففزع وهرب بعيدًا، وعندما وجدناه أخبرنا بذلك.

هممت أغادره بعد أن تأكدت هواجسي فاستوقفني قائلًا:

– طالما أن هناك ما يهدد حياتك، ستتخيل الأفظع، فيكون ذلك تربة خصبة تحصد منها شائعات مصدقة.

كلماته تؤكد ما يظنه أهل القرية بي، فهم يتجنبونني ولا يحادثونني، اقترنت رؤياي بكابوسهم المنقضي، يخافون من الاقتراب من منزلي أو ذكر اسمه لما رأوه على أيدي قاطنيه السابقين.

عندما أكون بالقرية أقضي حوائجي أرى الناس يبتعدون عني، فأرى الأم تحتضن أبناءها وتخبئهم خلف جسدها عند رؤيتي، أفعالهم تحطم فؤادي، تحزنني، وتغضبني كثيرًا ولكني كنت أتلمس لهم العديد من الأعذار، فتلقي ماءَها على نيران غضبي المتأججة بقلبي فتطفئها.

بأحد الأيام كنت أسير بطريق يحمل منازل قريتي الخشبية المتهالكة على ضفتيه، أحمل بين يدي سلة من الفاكهة، رأيت فتاة صغيرة، يلطخ وجهها الملائكي مسحة من رماد علق به، ترتدي لباسًا مهترئًا مصنوعًا من قماش أسود اللون، لم ينجُ من رماد وجهها، توقفت بالقرب منها فوجدتها تنظر إليَّ تارة وإلى السلة تارة أخرى، أخرجت إحدى ثمرات البرتقال، ثم مددت يدي لها بها، وما أن بسطت يدها لتأخذها حتى وجدتها ارتفعت عن الأرض

حينما حملتها والدتها وهرولت بها بعيدًا، وما تزال الطفلة تنظر إلى السلة ويدها مبسوطة. تركت السلة أرضًا وأخذت أنا البرتقالة ثم مضيت عائدًا إلى منزلي.

لست أدري ولست أتذكر، فمن الممكن أن أكون أحد هذه الوحوش أو أحد أسلافهم طالما أني لا أتذكر شيئًا عن ماضٍ قد انقضى، فربما أنا أي شخص أتخيله صالحًا كان أم طالحًا، ولكن كيف أكون صالحًا وتراودني تلك الكوابيس المفزعة التي أستيقظ منها كل ليلة مفزوعًا مبللًا بالماء من كثرة عرقي؟!!! لا أكاد أسلم جفني إلى النوم حتى تهجم عليّ بكل قسوة وضراوة دون وجود دفاعات مني تصدها أو تقلل تأثيرها فتحيل نومي إلى صراع محسوم؛ كنت أراني أسير وسط طريق وعلى جانبيه أناس كثيرون يصرخون، يتألمون، تتفجر الدماء من أجسادهم وتتطاير أمام عيني رؤوسهم، ورؤوسهم أرضًا تصرخ كأنما لم تهجرها روحها، تسألني: "لماذا قتلتني؟!!"، تظل الأجساد تتساقط أمامي وسط دمائها المتفجرة حتى أصل إلى آخر الطريق فأجد شخصًا يحمل ملامحي ممسكًا بسيف يهوي به على الرقاب ثم يلتفت إليَّ مبتسمًا.

كنت أسأل نفسي كثيرًا كلما استيقظت فزعًا؛ مَن هذا الذي يحمل ملامحي؟، هل هو أنا؟، أم غيري يحمل ملامحي؟، وإن كان أنا، فمن الذين أقتلهم؟، ولماذا أقتلهم؟

كنت أستشعر وجود مَن يراقبني، وكأن هناك مَن هو فوق قدرات بصري يشاطرني منزلي، كثيرة هي الأوقات التي أستيقظ فيها من نومي فأجد من يلتحف السواد يقف أمام فراشي، أراه ثم يختفي.

هناك صرخات واستغاثات تحتل رأسي تلعلع بأذني كل مساء، لم أكن أكترث لها، فكنت أوهم نفسي بقولي "لعلها صادرة من وادي الموتى أو يخيل إليَّ أني أسمعها"، وفي أعماق نفسي كنت متيقنًا بأن لهذه الأصوات علاقة بحُلْمي وماضيّ المنقضي، أصوات من زمن انقضى وفات تؤرق حاضري.

كثيرًا ما كنت أقف أمام مرآتي، أنظر إلى وجهي وإلى جرح قديم ترك أثره به، أحدث نفسي وأصرخ بها، فأسأل من يظهر بمرآتي؛ من أنت؟، أخبرني ولا تصمت هكذا؟!.

سؤال يلي الآخر، تتصاعد مع كل منهم وتيرة حيرتي ثم أسقط في بئر من حزني، وتصفدني أسئلتي غير المجابة بجدرانه دون وجود من يمد لي يده ليساعدني ويخرجني من محبسي.

حياتي سوداء إلا من نقطة مضيئة تضيئها؛ إنها حبيبتي فلست أحبها ككل حبيب، فحبي لها فاق كل الحدود، ودمر الحواجز فأصبح قلبي ينبض بحبها، لم أكن أحسها قطعة مني بل كانت كل قطعة مني، كنت أجلس أمامها لساعات طوال أحدثها فلا تحدثني، ألمسها ولا تلمسني، أقبّلها ولا تقبّلني، ولولا علمي أنها تحبني مثلما أحبها لكنت أحرقتها، ولكني كنت

سأحتفظ بترابها حول عنقي حتى لا يفارقني عطرها أو يغيب عن ناظري وجهها. أتوق إلى لسان تحدثني به فأسمع عذب صوتها، أو ذراعين تمسني وتحتضنني بهما فأحس بدفء صدرها، وألمس حنان قلبها، لا أريد أكثر من أن تسمع اذناي حديثها وتلمس يداي مثيلاتها، ولكنه مستحيل؛ فهي ما تزال تلك الصورة التي رسمتها من مُخيلتى عن حبيبتي والتي أُمَنّي نفسي بأن تكون حقيقة وتوهب الحياة لتضيء حياتي المظلمة دونها. كنت أسألها؛ من أنتِ؟ وأين أنتِ؟ لقد سلبتني قلبي، أسرت روحي فأضحى كل شيء بي يصرخ بحبها، وأغشى حبها عيني عن رؤية سواها، فصرت أتنفس هواها، لقد كانت لي ملاكًا بلا جناحين، سقط سهوًا من السماء، ونجمًا أهتدي به في صحرائها.

كنت أسأل نفسي سؤالًا دون إجابة تريح قلبي وتطفئ لهيب شوقه؛ هل هي حقيقة ورسمتها؛ لأنها كانت في حياتي سابقًا، أم أنها مجرد سراب من إبداع خيالي؟

كانت هذه هي اللبنات التي بنيت عليها رحلتي للبحث عن حبيبتي، ولكن كيف أبحث عمن لا أعرف؟

فرجوت قلبي ألا يخذلني قبل أن أستعين به فحتمًا هو سيدلني عليها ويوجهني إليها؛ فتيقنت من إيجادها وعزمت أمري منذ تلك الليلة أن أبدأ رحلتي – رحلة البحث عن حبيبتي.

أخذت حقيبتي، وضعت بها قنينة من الماء وبعض الطعام، وضعت حبيبتي أسفل ملابسي ملاصقة لصدري؛ حتى ألمس دفئها ولا يفارقني همسها، ثم وضعت سيفي بغمده في حزام لففته حول خصري، ألقيت نظرة أخيرة أودع بها غرفتي التي لا أذكر منها سوى ذكرياتي القليلة الحالية، دارت عيناي بأرجائها وأنا أرى أثاثها الوحيد – فراشي – يتوسطها، أستنشق هواءَها فأعبئ من رائحته الزكية رئتيَّ.

فتحت الباب فأبصرت مشهدًا خلابًا، فاتنًا، مغايرًا لما كنت أرى سابقًا، فلقد رأيت الأرض أمامي خضراء إلى مد البصر، والطيور من أمامي تمر وتغرد، لم أدرِ كيف أبصره هكذا الآن، فسألت نفسي؛ هل ازداد جمالًا ليودعني، أم فرحًا بنزوحي؟، غاب عقلي عن الواقع قليلًا، وأبحر في سماء آمالي، فتوهمت نفسي واقفًا عند آخر هذه الأشجار مع حبيبتي، وعندما أفقت من غيبوبتي سألت نفسي: "هل لو وصلت إلى الجانب الآخر من تلك الأشجار سأجدها؟ أم سألقى ما لا أحب؟".

أغلقت الباب وبدأت أهبط درجات السُّلم فأسمع صرير درجاته فتتراقص على وقع نغماته جنبات فؤادي؛ فهذا الصوت أفتقده بشدة فلم يأتِ أحد لزيارتي قبل الآن، انتهى السُّلم فوقفت أرضًا أمام التبة التي تحمل على قمتها منزلي، كل الناس تصعد السُّلم

لتصل إلى هدفها ولكن للوصول لهدفي أهبط السُّلم، نظرت لأعلى ألقي عليه نظرة الوداع ثم قلت له بصوتٍ عالٍ تعلوه نبرة متفائلة:

– سأعود إليك أنا وهي، أعدك بذلك.

لم أكن أعلم سر تفاؤلي وما هو مبعثه؛ فلو كان عقلي لما تفاءلت، وإن كان قلبي فقد صدق. سرت قليلًا حتى رأيت وادي الموتى يستقبلني بظلامه، تابعت سيري حتى وصلته فتلمست قدماي أولى خطواتها به، فأحسست ببعض الاختراقات من جيوش الخوف لدفاعات قلبي، خوفي من الجهة الأخرى لطريق الموتى، أرض الوحوش والشياطين، أرض الكهنة والسحرة، ولكن ليقيني بأن مَن يحب لا يخاف فقد أعماني حبي عن رؤية كل ما يتربص بي فألقى على قلبي دفاعات حطمت على بابه جيوش خوفي.

طريق الموتى طريق مستقيم وسط أشباه أشجار، يكسو الأسود أرجائها، دون أوراق، مجرد أغصان، أشجار ضخمة كئيبة مخيفة، يغطي الضباب أسفلها؛ ولذلك لابد لي من الحذر منه؛ فهو غادر بوحوشه، ماكر بمكائده، شرير بظلمته، متقلب كأمواج البحر، لقد أخبرني عجوز القرية عنه وقال لي:

– إنه مقبرة الشياطين، ومخبأ للناجين، وملجأ للهاربين.

وعندما سألته عن مقصده لم يجبني كأن الإجابة بها ما يؤذيه، فلزم الصمت ولزمت الحيرة، ولذلك لم تبارح يدي مقبض سيفي الذي لا أعلم مِن أين حصلت عليه؛ فهو غريب مثلي كأنه ليس من

عالمنا، وكأن من صنعه ليس بشريًا؛ فقبضته مصنوعة من حجر كريم أبيض اللون، ونصله براق قاطع، يقطع كل شيء مهما كانت قسوته فالسيف لغز كبير عندي، عند الخطر تضيء قبضته بلون أحمر، كذلك هناك رسم لجمجمة بشرية محفورة على نصله، وبضع كلمات نقشت أسفلها لا أفهم معناها، ولا أعرف لأي لغة تنتمي.

ظللت أسير وقتًا ليس بالقليل، تدور رأسي يمينًا ويسارًا، وأذناي يقظتان تستعدان لالتقاط أي صوت غريب حولي، فلم أرد أن يأتيني الخطر وأنا غير مستعد له، فيهاجمني وسط غفلتي. بدأ الظمأ يتملكني، بحثت عن شيء أجلس فوقه لأرتشف قطرات من الماء وأرى حبيبتي، فلقد اشتقت إليها كثيرًا، وجدت جزءًا من شجرة قد قُطعت سابقًا، جلست فوقها وأخرجت قنينة الماء، ارتشفت منها بضع قطرات بللت بها فمي المتيبس، أعدت القنينة للحقيبة وأخرجت حبيبتي من مخبئها، أنظر إليها في عينيها فأرسل لها بعيني من الكلام ما أعجز عن إخراجه بلساني، أمسها بأصبعي، أُقَبِّلها ثم أسألها: "أين أنتِ؟ إنكِ آخر ما أوده وأرجوه من حياتي البائسة، لا أريد معرفة مَن أنا بقدر لوعتي لمعرفة مَن أنتِ وأين أنتِ؟، إن كنتِ تسمعينني في مكانك الذي يخفيكِ، ويبعدني عنكِ فأخبريني، اهمسي إلى الرياح فستحمل رسالتك إليَّ.

قطع اكتواء قلبي بنيران حبها احمرار مقبض سيفي، فدلّ على خطر قادم، وضعتها بصدري ثم استللت سيفي وأنا أرى تحرك الضباب من حولي، مرت لحظات الانتظار ثقيلة كدهر أحصيه بأيامه وسنينه، وقفت مترقبًا، تتحفز أعضائي لأي شيء قد يحدث، غزا الخوف أرجائي، فخفق قلبي بشدة وبدأ صدري يعلو ويهبط فلم أستطع التحرك عندما أصبحت عبدًا لخوفي فأعجزني عن التصرف وصفَّدني إلى جداره.

ظهر لي الخطر فجأة؛ وجدته أمامي طويلًا إلى مد البصر بعينين حمراوين، ضخمًا كالأشجار حولي، هبط إليَّ برأسه حتى أصبح رأسينا على خط واحد لا يفصل بينهما إلا أمتار خمسة.

لم أدر ما سبب أني لم أخشاه عند رؤيته، فمنذ قليل كنت خائفًا مما ينتظرني، فغيري بمكاني لكان وارى نفسه التراب وكتب على شاهده "توفي منذ قرن مضى" ولا أن يقف أمامه، فكنت كمن اعتادت عيناه على ما هو أكثر منه خطورة، أو مات قلبي، وجدته يقترب مني قليلًا وهو فاتح فاه فتظهر أنيابه، براقة، تلمع بعينيَّ، عم الذهول والدهشة أرجاء وجهي عندما وجدته يحدثني قائلًا:

– من أنت؟

صمتت للحظات أستجمع فيها أفكاري المشتتة، فلقد ألجمت الصدمة لساني فقلت له متلجلجًا:

– لا أتـذكر شـيئًا عـن مـاضٍ قـد انقضـى، ولكنـي أقـول لـك بـأني الشخص الواقف أمامك.

تراجع للخلف برأسه ثم سألني:

– وإلى أين أنت ذاهب؟

أجبته وما تزال بعض من حيرتي تعلق بلساني:

– أبحث عن محبوبتي.

سألني مستفهمًا:

– وأين هي محبوبتك، في أي بلد هي؟

أجبته وأنا أهز كتفي:

– لا أعلم.

هـبط قلـيلًا برأسـه ونظـر إلـيَّ فـي عينـي بعينيـه الحمـراوين، وأنا أرى وجهي بهما ثم قال في حدة:

– لقد تعديت على أملاكي، فعد أدراجك واسلك طريقًا آخر.

قلت له وأنا أرسم على ملامحي الجد والصرامة:

– لا، لن أفعل.

قال في غضب جارف تطايرت مع صوته ملابسي:

– ألا تعلم مَن أنا؟

سألته بكلمات من سخريتي:

– ومَن تكون؟

التف بجسده حول جسدي حتى كاد أن يحطمني ثم صاح قائلًا بكلمات من خيلائه:

– أنا استروبيد ملك الثعابين، ورسول الموت إلى من أردت، سُمي زعاف، أنيابي حادة كالسيف تقطع ما تلمس، وجسدي قوي يعصر ما يطبق عليه.

قلت له باستخفاف وما تزال محاولاتي العابثة في الفكاك من قبضته مستمرة:

– وإن يكن، فلست أهابك.

ترك الثعبان جسدي ثم لطمني بذيله، فارتطمت بشجرة ضخمة أحسست من صوت تحطمها بأن عظامي هي مَن تكسرت، هممت أتكئ على يدي لأنهض، فبصرت سيفي بجواري فحملته ووقفت متأهبًا لأهجم، استعدادًا استقبله الثعبان بقهقهات ساخرة، قطعتها نظرة حائرة بعيون زائغة، ثم قال لي بعد أن خفت غلظة كلماته:

– من أين لك بهذا السيف؟

نظرت للسيف بيدي وسألته متلهفًا:

– لا أعلم، هل تعلم أي شيء ولو ضئيل حول هذا السيف؟

قال نافيًا:

– لا، لا أعلم ولكنه سيف مميز وجميل.

تمكن اليأس مني مرة أخرى وطأطأت رأسي حتى وجدته يحدثني بكلمات استعاد معها غلظته:

– كفانا هراء، وعُد من حيث أتيت.

أجبته مُصرًا بعد أن رفعت رايات التحدي في وجه كلماته:

– لا، لن أعود فلست خائفًا منك، وسأمر من هنا، وإن كنت مُصرًا فسأكون مسرورًا لأجعلك تتذوق سيفي.

صمت قليلًا كأنما هو يفكر ويجول بعقله شيء لا أعلمه.

ثم قال متلطفًا:

– لأنك أول مَن لم يرهبني؛ سأسمح لك بالمرور ولكن غيري لن يكون متسامحًا مثلي.

سألته متحيرًا: من الذي تتكلم عنه؟

أجابني بالحيرة: لسوف تعلم حينها، ولكن يجب أن تعلم بأنهم يحبون الدم كما تحب حبيبتك.

قلت في صوت واهن أقرب إلى الهمس:

– إذًا لن يكفوا عني حتى يخرجوه مني.

قال لي: إني معطيك هديةً فاشكرني عليها حين تستخدمها.

سألته مستفهمًا متعجبًا:

– وما هي هديتك؟ وكيف أستخدم ما لا أعلم؟

قال وهو يمضي من أمامي: ستجدها حين تحتاجها.

مضى الثعبان من أمامي ولم يبقَ له أي أثر، وقفت أفكر في هديته وما هي كينونتها؟!!!، ومن هم الذين لن يكونوا متسامحين معي؟، والسؤال الأهم الذي ظل يتردد بداخلي: "لماذا تركني الثعبان؟، هل لأنه وجدني شجاعًا أم أنه رأى شيئًا بي لم أره أنا؟، أم هل تملّكه الخوف مني أم من السيف؟".

وضعت سيفي بغمده، ثم مضيت في طريقي أحمل فوق عاتقي المزيد من أثقال وضعها الثعبان برأسي، فكانت خطواتي بطيئة، توقفت عن السير فجأة عندما رأيته أمامي مقطوع الرأس، تتفجر الدماء منه، وحاملًا رأسه بين كفيه لأجده يقول:

– اقتلني كما قتلتني.

صدمتني كلماته وزادت من حيرتي فأجبته وسط دهشتي:

– لست بقاتل، لن أقتلك.

أعاد طلبه مرة أخرى وأنا ألح عليه أن يكف عنه؛ فلست بقاتل ولماذا أقتله وأنا لا أعرفه، وليس بيننا عداوة، ولم أره قبل الآن، ولكنه عاود طلبه بكلمات زادت من أحجيتي حيث قال:

– اقتلني أيها الشيطان.

رددت كلمته مصدومًا: شيطان!!!!!

ألقيت سيفي بعيدًا عني وأطبقت كفي حول رأسي، ثم جثوت أرضًا وأنا أردد كلمات أنتزعها من بين أنقاض روحي:

– لست بقاتل، لست بقاتل.

رفعت ناظري لأراه فلم أجده، ضربت الأرض بكلتا يدي متسائلًا؛ ماذا فعلت في حياتي المفقودة؟!!!

توقفت موجات المد من أفكاري عن الخروج من مخبأها الذي ضاق بها حينما وجدت الضباب يتبدد، والظلام تهزمه جيوش الضوء فاحتلت أراضيه وكسا الأخضر الأشجار وتدلت منها ثمارها، وقفت أنظر حولي مذهولًا أدور حول نفسي، لأرى ما يحدث وسببه بلا فائدة، عاودت الهواجس والأفكار هجومها فوجدتني ضعيفًا عند رأسي فأحسست بألمه وخُيِّل لي أني مساق إلى قدري المحتوم دون وجود رغبة مني للوصول إليه ولكني قلت لنفسي؛ لا فائدة من كل هذا فلابد من المضي قدمًا في رحلتي مهما كلفتني.

سرت قليلًا حتى وصلت سهلًا شاسعًا، توقفت لأنظر لأي طريق من تلك الطرقات الثلاث أسير. احمر مقبض سيفي بغتةً فلم أستطع استلاله لسرعة مَن انقض عليّ وطرحه لي أرضًا، نهضت سريعًا أتبين مهاجمي ولكني وجدته يعاود هجومه عليَّ مرةً أخرى، فأسلمت ساقي للرياح وبدأ سباقنا والذي انتهى بتعثر قدمي بحجر صغير فسقطت أرضًا، وضعت يدي أرضًا لأتكئ عليها فوجدت ضوء الشمس يختفي فتيقنت من قربه مني، نظرت خلفي فرأيته، قلت في نفسي "هذا إذًا مَن لن يكون متسامحًا معي"، نهضت عن الأرض وقررت المواجهة، مواجهة رسول موتي،

استللت سيفي وتأهبت لمهاجمته ولكنه لم يتحرك فربما هو غير مصدق أني سأواجهه، أو هو استهزأ بمحاولتي، زال عنه سكونه حينما بدأت هجومي فارتفع لأعلى قليلًا، ثم عاد إليّ مهاجمًا ومخالبه تسبقه، انبطحت أرضًا فمرّ من فوقي، فنهضت سريعًا لكي أتجهز لهجومه التالي، استدار في تحليقه وعاد إليَّ، بدأ هجومه فبدأت دفاعي بالسيف لتتساقط أمام عيني مخالبه وتتعالى معها صرخاته، طار بعيدًا عني ثم عاد أكثر سرعةً تسبقه نار غضبه منطلقةً من فمه فهرولت مبتعدًا عنها وقفزت خلف صخرة كانت هي درعي الذي تصدى لها، مكثت خلفها أقول لنفسي: "لا بد أن أخرج فإن ظللت هنا جاء والتهمني، أين هي هدية الثعبان؟ إن هذا هو وقتها؟".

استعمرني اليأس فوضعت السيف جانبًا وحاولت التنقيب في حديث الثعبان لعلي أجد حلًا لأفوز بمعركة خاسرة، لم أتوصل لشيء فهممت أطبق يدي فأضرب الأرض بها ولكنها تحجرت عند تقوس معين، ونبتت كرة صغيرة من النار بدأت تكبر شيئًا فشيئًا، عمّت الفرحة أرجائي فطردت ثقتي في الفوز خوفي، وأوصدت خلفه أبواب قلبي واستعادت ملامح وجهي سعادتها بعد جلاء هلعها، ثم قلت وأنا أنظر إلى كرة النار بعيون براقة: "إنها هي، إنها الهدية". رفعت رأسي قليلًا لأرى ذلك المخلوق، رماني بناره عندما أطللت بها فأحنيتها قبل نضوجها، زحفت خارجًا من خلف الصخرة باتجاه

يساري إلى عكس اتجاه نظره وعاجلته بكُرةٍ من نار اصطدمت بجانبه فقذفته بعيدًا مضرجًا في دمه وسط صرخاته تخترق أذني، نهض عن الأرض يقف على قدميه وسط ترنحه، نظر إليّ برأس مطأطأ، فرق إليه قلبي فأخمدت كرة من نار كونتها ولكنه باغتني بناره فقفزت حتى تفاديتها ثم عاجلته بواحدة مني فاصطدمت بصدره وأمسكت النيران به فاحترق كليًا وتحول إلى رماد.

وقفت أنظر إلى رماد جسده، ثم جلست أرضًا ألتقط أنفاسي المتقطعة حتى هدأت وزال عن جسدي بعض من تعبه، نهضت فسرت إلى الرماد ووقفت أنظر إليه وأنا أقول ساخرًا: "هل هذا هو الوحش الذي كان يواجهني؟"، فطوله الذي فاق الأمتار الأربعة، بجناحيه الكبيرين، ومخالب الحديد بأقدامه، وفم التمساح لديه لم يشفعا لديه، وها هو حفنة من الرماد أمامي.

نظرت وسط الرماد أمامي وعلامات دهشتي تطل من عيني فصحت قائلًا: ما هذا الذي أراه بالرماد؟!!

وجدته في وسطه براقًا، لامعًا، أخاذًا، التقطته ونفخت فيه حتى زال ما علق به من رماد، قلّبته يمينًا ويسارًا، وجدته يحمل نقش سيفي قلت في نفسي متعجبًا ومتحيرًا:

– إنه مطابق لنقش سيفي، ما الذي يربط سيفي بهذا الخاتم؟ وما الذي يربط السيف بي؟ وما الذي يربطني بذلك الكائن؟

أحسست نفسي أغرق في بحر لُجِيّ من ظلمات أسئلتي أبحث فيه عن قشة أتعلق بها فأنجو مما أنا فيه، ولكني عندما عثرت عليها وجدتها قطعها صغيرة، فإذا أردت النجاة عليّ أن أوصل قطعها بعضها بالبعض حتى تخرجني من البحر قبل غرقي، قلت لنفسي والدهشة ما تزال تسيطر على عقلي:

– لماذا ينكشف إليَّ جزء فيظهر الآخر، لماذا قررت أن أخوض هذه الرحلة التي ستتسبب في انفجار عقلي؟

سمعت صوتًا يتردد بداخلي يقول: ربما تؤدي هذه الرحلة إلى اكتشاف ذاتك، تقودك إلى نفسك الضائعة.

وضعت الخاتم بخنصر يدي وعدت لآخذ سيفي من خلف الصخرة ولكني وجدت الجزء الأحمر بقبضة السيف قد زاد قليلًا كأنما يتغذى على أسئلتي المتزايدة، قذفت به أرضًا فاخترق الأرض ولم يظهر منه إلا قبضته، سكنت قليلًا محاولًا تناسي ما لقيته حتى الآن، حتى خمدت ثورتي فمددت يدي وأخذت السيف ومضيت في طريقي.

****

انتهت رحلته عندما وجدها تشير بيدها إلى بيوت على مرمى البصر وتقول: انظر، إنها قريتي.

نظر اتجاه إشارتها فرأى بيوتًا تظهر شيئًا فشيئًا.

فسألها: ما اسمك؟؟؟

أجابته وسط ابتسامة خفيفة: ريحانا.

سكن الصمت أفواههما ولكنه لم يمنع عيونها من النظر إليه خلسة طوال طريقهم، كانت تسرق نظرات، في لحظات أوهمها وخدعها عقلها أنه لا يراها وهو يراها دون أن ينظر إليها.

وصلا أول البيوت فوجدها بيوتًا خشبية متهالك معظمها، يتواجدون على ضفتي طريق يقسمهم إلى جزأين، سارا به، تدور رأسه يمينًا ويسارًا، ينظر إلى تلك البيوت وبؤسها يستقبله فاتحًا ذراعيه، أحزنته ملابسهم الرثة، الممزقة، التي لا تستر من أجساد رجالها سوى عوراتهم وقليلًا من أجزاء أخرى، وتغطي أجساد نسائهم بالكامل ملابس خيطت من قماش بال مازال قادرًا على مواجهة فقرهم وسنين ارتدائه، فلم يتمزق.

يكسو بؤس حالهم وجوههم ويلقي بظلاله على عيونهم.

يسيرون والناس حولهم ينظرون إليهم فيتركون أعمالهم وينادون على مَن بالداخل لينظر هو الآخر إليهم، تتلاقى عيونهم وسط

همسات بعضهم في آذان البعض الآخر، وإشارات من أيديهم تنطلق تشير إليهم. سار الجميع خلفهم حتى وصلا رقعةً فسيحة فوجدوا مَن بقي مِن أهل القرية ينتظرهم لتطاير خبرهم ووصوله إليهم قبلهم، وجدهم ينظرون إليه وعلامات الدهشة تتدلى من وجوههم، نظر إلى ريحانا عن يساره فنظرت إليه ثم نظر إلى الناس أمامه، عندها ظهر شيخ كبير من بين الصفوف.

قالت له ريحانا في سعادة: إنه شيخ قبيلتنا.

ثم هرولت إليه فقبّلت يده وهو ينظر الى الغريب بعين الرضا والعرفان، خرجت من بين الجموع سيدة احتضنت ريحانا والدموع تنهمر منها، تقبلها بكل مكان برأسها، سالت من ريحانا دموع حارة، ثم انكبت فوق يديها تقبلها فبللتها بدموعها.

سارت السيدة تجاهه وقالت وسط دموعها:

– شكرًا لإنقاذك ابنتي.

لم يدرِ بنفسه إلا وهو ينزع يده من يديها رغبةً منها في تقبيلها، ربَّت على كتفها فابتسمت له ثم انصرفت لتقف وسط الجموع، تقدم منه الشيخ، وسأله: مَن أنت؟

أجابه بشيء من ضيق يعتمر صدره، قائلًا:

– أرجو ألا تسألوني هذا، فلا أعلم مَن أنا.

الشيخ مبتسمًا ومستفهمًا:

– حسنًا، ولكن كيف تغلبت على الحرس الملكي فهم الأقوى؟

أجابه واثقًا: ليسوا الأقوى طالما هُزموا.

انطلق صوت ريحانا من خلف الشيخ فقالت وهي تتوسد صدر والدتها: لقد هزمهم جميعًا بسيفه.

نظر إليها الشيخ فصمتت وطأطأت رأسها في خجل ثم استدار له، ناظرًا إلى الخنجر الذي يخترق كفه، نظر يمينًا فأشار لأحدهم فجاءه، همس في أذنيه فذهب ووقف أمام الغريب ثم حدثه قائلًا:

– تعالَ معي.

نظر إلى الشيخ فأومأ برأسه فذهب معه، أوصله الرجل إلى غرفة أدخله إياها، ثم قال قبل أن يغلق الباب خلفه:

– اسكن هنا حتى تطيب، وسيأتيك الطعام والدواء.

أغلق الرجل الباب وانصرف، فجلس الغريب أرضًا ناظرًا إلى يده والخنجر، دار حول نفسه متفحصًا أرجاء الغرفة ومكوناتها، فوجدها بسيطة، تعكس حال أهلها فلا يوجد بها سوى فراش وضع بإحدى زواياها، وشعلة نارية تكاد تضيئها، تاركة أثرها سوادًا يكسو الجدار خلفها، سقفها به ثقوب عديدة بعضها صغير وبعضها أكبر حجمًا. وفوق الفراش على جداره الخشبي نقش لشمس تطلق أشعتها وبوسط قرصها صورة لفتاة تجلس ويتوسد قدميها شخص يخترق سيف صدره.

التفت صوب الباب عندما سمع طرقًا عليه فوجدها ريحانا، وهي تحمل صينية بين يديها، وضعتها أرضًا إلى جواره ثم جلست،

ممسكة بيده المصابة وبدأت تنزع عنها الرباط وهو ينظر إليها، انتهت من نزع الرباط وجاء دور الخنجر فقالت بكلمات رقيقة وهي تحرك أصابعها فوق يديه، بعيون هائمة مع ابتسامة تعلو شفاهها:

– أرجو ألا يؤلمك هذا؟

وهي لا تعلم أن ما يؤلمه حقًا هو عدم إحساسه بالخنجر، فلم يشعر بأن هناك شيئًا قد انتزع منه، عندما نزعت الخنجر من يده، ثم غسلتها بماء أخذته من إناء وضعته أسفل يده، أحضرت إناءً آخر، أخذت منه شيئًا كالسمن ووضعته على جرحه ثم ربطتها مرة أخرى، قالت وهي تنظر بعينيه، متلعثمة:

– هذا سيشفي جُرحك سريعًا.

نهضت عن الأرض وقالت وهي تشير إلى الصينية مع بسمة زينت شفاهها:

– ستجد هنا طعامًا من والدتي امتنانًا منها على إنقاذك لي.

تعلقت عيناهما فظلا ينظران إلى بعضهما البعض دون أن يقولا شيئًا، لكنه وجد نظرتها غريبة، حنونة، براقة، شملته برقتها ونعومتها، وضعت يدها على قلبها ثم أشارت له بإشارة لم يفهم معناها، ولم يفكر بها، ثم تركته وخرجت.

أسلم ظهره للفراش، ناظرًا عبر أحد الثقوب إلى النجوم وهي تتلألأ وسط سواد السماء بالخارج، فهزمه النوم فغط في نوم لم يفق منه إلا عندما تسللت أشعة الشمس من أحد ثقوب السقف،

واستقرت فوق وجهه، نهض عن فراشه واتجه صوب الشعلة، أطفأها ثم ذهب خارج الغرفة فوجد ريحانا تجلس أمام الباب ببضع خطوات لتنهض عند رؤيته والابتسامة تعلو شفاهها فابتسم لابتسامتها، فوجدها تقول:

– صباح الخير. هل نمت جيدًا؟

قال وهو يومئ برأسه موافقًا:

– لا أذكر أنني قد نمت هذا القدر سابقًا.

قالت وهي تنظر بعينيه وسط ابتسامتها:

– إن عرافتنا قد جاءت اليوم، فهل تود الذهاب إليها؛ لتدلك على الطريق؟

قال لها والسرور يقفز من عينيه: بالتأكيد.

ازدادت ابتسامتها وسارت أمامه فتبعها، يدور برأسه الكثير من الأسئلة حول سبب عدم رؤيته لأي من أهل القرية، حتى وصلوا آخر البيوت فانعطفوا يمينًا، فظهر لهم كوخ وسط الأرض الخضراء وحيدًا، بلون قرمزي، وصلوه فوجدوا العرافة تجلس أمامه، وجدها سيدةً عجوزًا طاعنة بالسن، عيونها سوداء بالكامل، غائرة في محجريهما، تتشح السواد ويغطي صدرها قلادات كثيرة صنعت من قطع الأخشاب الدائرية، جلست ريحانا بجوارها، ثم همست بأذنها فهزت العرافة رأسها، نظرت إليه ثم قالت: اجلس يا والدي.

كان قد بدأ الجلوس ولكن كلمة والدي أوقفته في الطريق، نظر إلى العرافة ثم إلى ريحانا، ولكنه أكمل جلوسه وسط دائرة صنعتها العرافة من أحجار دائرية الشكل، سأل نفسه متحيرًا:

– كيف تقول لي العرافة وهي امرأة طاعنة في السن يا والدي؟

سمع الإجابة تتردد داخله: "لعلها أخطأت، والفارق ليس بكبير؛ فالخطأ في حرف الألف فقط".

رغم عدم اقتناعه بتلك الإجابة، ولكنه تحايل على عقله ليصدقها ليروي ماء كلماتها ظمأه للمعرفة. أمسكت العرافة بعصا يتدلى من قمتها أخشاب دائرية صغيرة، بدأت تلفها يمينًا ويسارًا، ثم أغمضت عينيها وهي تتمتم بعدد من الكلمات لم يتبينها، ثم قالت له العرافة بعد أن فتحت عينَيها:

– إنك تبحث عن حبيبتك. ستجدها وحينها ستختار.

سألها سريعًا ومتشوقًا لكلماتها: أختار ماذا؟

العرافة باقتضاب: وقتها ستعلم، كما أنك ستتزوج عند معرفة ذاتك.

سألها ولهفته تسبقه: هل سأتزوج حبيبتي؟

صمتت ولم تخبره وكأنها تخفي عليه أمرًا، ثم أغمضت عينيها للحظات وعندما فتحتهما أردفت قائلة:

– لا تبحث عن ماضيك وعش حاضرك، لأن ماضيك ضدان، وأنت لا تريد معرفة الذي فعلته سابقًا.

غلف الحزن كلماته وأجزاء من وجهه ثم أخبرها متجهمًا:

– إنى أريد أن أعلم من أنا.

قالت وهي تشير إليه بيدها:

– أنت الجالس أمامي. فلا تبحث عن شيء ستتمني أنك لم تعرفه.

قال لها في غير اكتراث:

– وإن يكن، ولكن لماذا سأتمنى ذلك؟ أرجوكِ أخبريني.

صمتت العرافة ولم تجب على تساؤله، ثم قالت موضحة:

– أنا لا أعلم إلا ما تخبرني به الدائرة.

قال لها والضيق ينساب من كل عضو به، ونيران كلماتها تزيد من اكتواء عقله:

– حسنًا، هناك أمر آخر.

– في منزلي كنت أرى ظلالًا، وكأن هناك مَن يعيش معي.

نزعت قطعة خشب دائرية من عصاتها، وضعتها فوق رأسه ثم أغمضت عينَيها وتمتمت بكلمات غريبة كسابقاتها، ثم قالت:

– إنه حارسك.

قال متعجبًا: حارسي!!! مَن استعمله لي؟ ومم يحرسني؟

قالت باقتضاب: والداك مَن استعملاه لك.

سألها في لهفة وشوق لإجابتها:

– والداي! هل تعرفينهما؟ هل تعلمين عنهما أي شيء؟.

أجابته بكلمات زادت من حيرته فقالت:

– قلت لك لا أعلم إلا ما تخبرني به الدائرة.

أحس بالضيق يجثم على صدره فينزع روحه ببطء، فنهض عن مجلسه لينصرف، فوجد العرافة توقفه بقولها:

– أمر آخر.

قال لها مستنكرًا:

– ماذا؟ هل ستضيفين لغزًا آخر إلى أحجيتي؟

قالت في غير اهتمام لحالته:

– سيطلب منك مهرٌ غال، فإن حصلت عليه فضع سيفك به وسيذكرك بالضد الأول من ماضيك.

التفتت إلى ريحانا وقالت لها:

– بنيتي، هلَّا أحضرتِ لي بعضًا من الماء.

نهضت ريحانا وذهبت إلى داخل الكوخ وهو يتبعها بعينيه، فوجد العرافة تقول:

– أعلم بأنها هي مرادك.

سألها متعجبًا: كيف ذلك؟

تهربت من إجابة سؤاله وقالت:

– سأخبرك أمرًا، بعد يومين ستتخللها روح ساحرنا العظيم أمان. فتصبح ساحرة الشمس، وأعظم السحرة على مر العصور.

سألها بكثير من دهشة كست وجهه: لماذا تخبريني بذلك؟

قالت موضحة:

– لأنها ستقدم لك تضحية لن يقدمها سواها، ووقتها ستختار.

قال متعجبًا: اختيار آخر!!!!!، ماذا تقصدين به؟

همت بالإجابة، ولكن ظهور ريحانا أمامهم وأد حديثها.

نظرت له العرافة ثم قالت:

– ابحث عن النعمان في بلاد النسيان، خلف مستنقع الشيطان ستجد عنده البرهان بأنك أيها الإنسان لا يجب أن تعيد الزمان.

أحس بالدنيا تدور من حوله، زلزلت الأرض تحت قدميه، فتردد صداها بأرجاء روحه، فبدأ الغضب والحيرة يجتاحان عقله، استدار غاضبًا وهمَّ بالابتعاد عنها، لكن نداءها له أوقفه، عندما قالت:

– انزع عن يدك رباطها فلست في حاجة إليه.

نظر إلى يده ثم نزع عنها رباطها فوجدها كما كانت ولا يوجد أثر للخنجر بها، نظر إلى العرفة فوجدها تقول:

– هناك الكثير لم تعلمه عن نفسك وعن جسدك.

انصرف من أمامها وهو لا يرى سوى كلماتها بعقله، فلقد غابت شمس الحقيقة عنه ففقد بصيرته، ولم يرَ إلا تلك الألغاز التي صادفها قُبلًا، وتلك التي أضافتها العرافة العجوز، والتي تزيد بجلوسه أمامها، تذكر الثعبان وحديثه له وهديته فحدث نفسه سائلها: "هل تركني الثعبان لشجاعتي أم لأنه رأى بي

مـا لـم أرَه؟، فحـديث العرافـة يخبرنـي بأنـه رأى بـي مـا لـم أرَه، كذلك هديته لي.. هل كانت موجودة عندي قبل أن أفقد ذاكرتي أم لا؟".

خطت ريحانا خطوات سريعة حتى أدركته، وعندما أحست بما يضيق به صدره استوقفته، قائلة:

– إنني أريد أن أريك شيئًا، تعالَ معي.

ظلا يسيران معًا حتى وصلا آخر القرية، فوجدا أهل القرية هناك مجتمعين، يعدون الطعام والشراب في قدور كبيرة، وآخرين يزرعون الأرض بدائرة من مشاعلهم حول كومة من الأخشاب تتوسطها.

سألها وهو ينظر إلى الناس من حوله:

– هل هناك وليمة أو احتفال ما؟؟؟

أجابته ريحانا بسرور:

– نعم، فهم يجهزون لحفل الحصاد ليلًا.

جاءت طفلة صغيرة وقفت أمامه، مدت له يدها لتعطيه قطعة من الحلوى، نظر إلى ريحانا فابتسمت له وأومأت برأسها، نزل إلى الطفلة وأخذ منها الحلوى، قبّلها على وجنتيها ثم قال لها:

– ما اسمك؟

قالت: جليلة.

أشارت له ليعطيها أذنه فتخبره أمرًا لا تريد غيره أن يسمعه، أحنى رأسه تجاهها فهمست في أذنه بكلمات أدرك معها أشياءً كان مغيبًا عنها.

تركته الطفلة وهرولت من أمامه، تركت كلماتها ابتسامة فوق وجهه فنهض عن الأرض، فسألته ريحانا:

– ماذا قالت لك جليلة؟

قال لها وهو يحاول إخفاء أو إنهاء ابتسامته دون جدوى:

– لا شيء، حديث أطفال.

مرّ من أمامه شاب مفتولة عضلاته، بارزة، يعلو وجهه غضب ظاهر، يزين رأسه شعر حريري يتدلى على كتفيه، يرتدي قميصًا حريريًا أبيض اللون، مفتوحًا قليلًا عند الصدر، ويكسو قدميه بنطال من جلد أسود اللون، ينظر إلى الغريب وهو يتبعه بعينيه حتى توارى عن عينيه خلف البيوت.

التفت إلى ريحانا وقال لها وهو يشير بيده: مَن هو؟

أجابته ريحانا بعد أن بدأ الحزن يعلو وجهها:

– إنه شداد. ابن شيخ القبيلة.

قرأ من حديثها مسحة من ألم فسألها مستفسرًا: فقط؟

تلجلجت ريحانا في إجاباتها وترددت، طأطأت رأسها ثم قالت والحزن يكسو كلماتها: إنه يريد أن يتزوجني.

تنهد ثم قال لها: الآن فهمت سبب نظراته لي.

صعدت الدماء إلى وجنتيها وقالت بصوت خافت ممزوج بضحكة طفولية: ماذا فهمت؟

قال لها: لا شيء، ولكن إذا كان يريد أن يتزوجك فكيف ترك جنود الملك يأخذونك؟

أجابته بسرعة لم يتوقعها تسبقها سخريتها:

– وماذا تريده أن يفعل؟ يمنعهم، ويعرض حياته للخطر!!!!

أجابها بشيء من الصرامة:

– وإن يكن، فإني أدافع عن حبيبتي حتى آخر قطرة من دمي.

نظرت في عينيه فأحسها تريد قول شيء، ولكن هناك ما يمنعها، انتهت من رحلتها في أعماق عينيه ثم قالت:

– اذهب الآن لتسترح قليلًا وتستعد للاحتفال مساءً.

استدار عائدًا إلى غرفته، يسير بأرجائها جيئة وذهابًا، عاقدًا يديه خلف ظهره، يفكر في كلام العرافة، وبكل شيء واجهه حتي الآن، يضرب الجدار بيديه، تتصارع هواجسه وأفكاره برأسه، يسأل نفسه: "من أنا؟؟!!!، لماذا كل هذه الأحجيات؟؟!!!، لماذا كلما حصلت على جزء من إجاباتي تتزايد أسئلتي".

تمدد فوق الفراش ليكمل رحلته في بحر أفكاره، بعيونه الشاردة حالها كحال عقله، يريد أن يصرخ، أن يبكي، يجتاحه الكثير من الأسئلة لا تنتهي ويبحث عن إجابات لا يعرف لها سبيلًا.

****

كان الملك شنيار – رجلًا في أواخر عقده الخامس، عظيم الجسد ببطن ممتلئ، يقارب طوله المترين، بعيون كاحلة بلون أحمر، شديد سواد بؤبؤها، مع حمرة تكسو جلده شديد البياض – في تلك الأثناء يقف أمام كرسي العرش، والذي هو على هيئة أسد، وأسفل قدميه سجادة من جلد نمر، يرتدي جلبابًا ذهبي لونه، وفوق صدره خيط شكل لأسد بخيوط من فضة، وإلى الطريق المؤدي إليه بداخل غرفة العرش يقف الجنود على كلا الجانبين حاملين رماحهم، ثابتين فلا يتحركون أو يرتد لهم طرف، على اليسار خلف الجنود يجلس خمسة من الأشخاص يعزفون الموسيقى وعلى ألحانهم تتمايل الراقصات أمامه بلباس يظهر عوراتهم لا يخفيها، ويتمايل معهن وهو يحمل كأسًا من الخمر ووزيره يقف بجواره، عاقدًا يديه مكتفيًا بابتسامة عريضة حينما ينظر إليه شنيار لتجد ابتسامته طريقًا شائكًا لترتسم فوق قسمات وجهه القاسية، عيون يختبئ بها مكر الدنيا كلها، وبشرة استعار لونها من لون ظلمات قلبه، بجلبابه الأسود ورأس النمر الذهبية تزين صدره.

استطاع جندي النجاة بعد حادثة كرة النار أن يصل إلى الملك شنيار، فدخل مهرولًا إلى غرفة العرش وهو يصرخ قائلا:

– مولاي، مولاي.

ثم ارتمى على بعد خطوات من العرش أرضًا، فزعت الراقصات عندما رأوا حاله ويده الموضوعة في جبيرة حمراء اللون من كثرة نزيف دمائه، فتوقفت الموسيقى، أشار شنيار للراقصات فخرجن، قال له شنيار غاضبًا:

– مَن أنت ومَن فعل بك هذا؟

قال الجندي وهو يحني رأسه أرضًا:

– إني يا سيدي وسبعة جنود آخرين بالإضافة إلى قائدنا قد ذهبنا لنحضر عروس مولاي.

شنيار في حدة:

– وأين هي عروس مولاك؟

قال الجندي مترددًا وخائفًا:

– لا أعلم يا سيدي، فلقد خرج علينا أحدهم من حيث لا نعلم، احتمت به العروس فحماها، وعندما حاولنا مهاجمته قتل ثلاثة منا بكرة من نار خرجت من يده.

نظر شنيار إلى وزيره عن يساره فهز الوزير له أكتافه متعجبًا، تابع الجندي حديثه قائلًا:

– ثم أخرج سيفًا لم أره في حياتي، براقًا، قاطعًا، قطع كل سيوفنا كما يقطع أجسادنا.

قال له شنيار في غضب:

– اخرج من هنا حتى أطلبك.

الجندي:

– تحت أمر مولاي.

شنيار غاضبًا:

– من هذا الذي تجرأ وهاجم جنودي؟؟، ألا يعلم من أنا؟؟، أيها الوزير.

تنبه له الوزير فنظر إليه صامتًا فقال له شنيار:

– أرسل جنودًا آخرين، أريد رأسه والفتاة.

الوزير محاولًا امتصاص غضبه:

– صبرًا مولاي، إن السيف الذي يقطع السيوف هو السيف البتار، ولكنها خرافة يا مولاي.

شنيار مستفهمًا:

– هل لهذا السيف قوى أخرى؟

الوزير مؤكدًا:

– بالتأكيد يا مولاي، لأن من صنعه هو شيطان الإنكليس – سادة الشعوب في السحر الأسود، وكان هذا الشيطان أقواهم وزعيمهم، ولكن هناك خرافة تقول بأن ذلك الشيطان سيعود مرة أخرى للحياة.

شنيار: وإذا حصلت على هذا السيف؟ هل أحصل على قواه؟

الوزير نافيا: لن تستطيع يا مولاي.

شنيار في غضب: لماذا؟

الوزير: لأن السيف لا يفارق حامله، وإن فارقه تبخر في الهواء.

شنيار متعجبًا ومستفهمًا:

– كيف وصل ذلك السيف إلى ذلك الغريب؟!

الوزير وهو يهز كتفيه:

– لا أعلم يا سيدي، فبعد مقتل شيطان الانكليس على يد أحد أبنائه المتبنين، اختفي السيف والابن.

أمسك الملك شنيار ذقنه بيده وبدأ يحرك أصابعه فوقها، ثم قال:

– أحضروه لي حيًا فهو بغير فائدة وهو ميت.

****

جاء المساء فوجد الغريب طارقًا ببابه – فشتان الفارق بين منزله هنا ومنزله هناك، فهناك لم يجد ذلك الطارق، وهنا يجده كل لحظة، نهض عن مجلسه ليفتح الباب فوجدها ريحانا وهي تستقبله بابتسامتها المعهودة، وتقول: هل استرحت؟

قال لها في أسى: ومَن يسترح وفكره مشغول؟

تنهدت ثم قالت: هيّا فالاحتفال قد بدأ.

أغلق الباب ثم سار إلى جوارها حتى وصلا الاحتفال، فوجد شيخ القبيلة هناك يجلس وسط أهل القرية في دائرة، اتخذوا من نار أوقدت مركزًا لهم، رآه الشيخ قادمًا تجاهه فنهض عن مجلسه وقابله بابتسامته تسبقه يده الممدودة لتصافحه، وهو يقول له: مرحبًا بك في حفلنا.

لم يجب كلماته سوى بابتسامة علت شفتيه، جلس بجواره بين الرجال، وجلست ريحانا بين النساء على الجانب المقابل، نهضت بعض النساء لترقص ومعهم ريحانا وهي ترمقه بنظراتها، تتمايل بكل خفة ورشاقة على وقع الموسيقى وسط تصفيق الحضور، وبكل إيماءة نظرة شقية ترسلها له من أعماق عينيها تخبره بها عن مدى حبها له، انتهت الرقصة فعادت النساء إلى مكانها السابق وريحانا تنظر له بطرف عينيها فتميل التي بجوارها وتحدثها

في أذنها فتضربها ريحانا على كتفها ثم تطأطئ رأسها في خجل، فعلم أنهما تتحدثان عنه.

ربَّت شيخ القبيلة على كتفه فتحول بصره من ريحانا إلى الشيخ بجواره، فوجد الشيخ يقول له: كيف وجدت حفلنا؟

قال له ومازالت الابتسامة على شفتيه: ممتعًا.

نظر أمامه ثانية فوجدها تنظر له، ولكنها اختفت خلف شخص وقف أمامه، رفع بصره عاليًا فوجده "شداد" يشير له بسيف خشبي، لم يفهم ما يريد، فانحنى شيخ القبيلة برأسه وهمس في أذنه، وقال:

– إنه يريد مبارزتك.

قال له متعجبا: مبارزتي أنا!!!، لماذا؟؟!!!

أومأ الشيخ برأسه ثم قال مبتسمًا:

– إنه تقليد قديم؛ حيث يتبارز محاربان؛ ليفوز أحدهما ويكون هو بطل حفلنا.

الغريب رافضا: أرجوك، اغفر لي لا أستطيع.

فقال له الشيخ راجيًا:

– أرجو ألّا تحرمنا رؤية ما تقصه علينا ريحانا منذ أمس.

نهض عن مجلسه، سارا إلى وسط الدائرة، قذف إليه شداد بسيفٍ خشبي، نظر الغريب إلى ريحانا فوجدها تنظر إليه وهي حزينة ثم تهز رأسها يمينًا ويسارًا، نظر إلى شداد فوجده يبتسم ساخرًا، كانت في نظره مبارزة ترفيهية ولكنه أدرك العكس؛ حينما بدأت

فوجد شداد يريد هزيمته ليكون البطل ويكون هو بطلًا فارغًا من ورق، يهجم عليه بكل قوة وبكل ضراوة عن يمينه وعن يساره، مستهدفًا قدميه فيقفز عاليًا ويهبط خلفه فيستدير له ويعاود هجومه، تعجب الجميع كما تعجب هو من قفزته العالية ولكنه لم يشغل باله بها في حينها، بدأ يكثف من هجماته وهو يردها حتى وقع أرضًا عندما تعثر في حجر بالأرض، وجده يرفع يده مهللًا، والناس حوله يهللون ويصفقون، نظر إلى ريحانا فوجدها حزينة، نهض عن الأرض وغضبه يتساقط من وجهه، استعد لهجومه عليه، ولكنه باغته بهجومه الذي لم يتوقعه أي من الحضور، كان لا يرى يده أو سيفه من سرعة ضرباته ومن تحركه خلفه وعن يمينه وعن يساره، فمن كل الجهات كانت ضرباته تتساقط عليه كالأمطار في شتاء يوم عاصف، فكانت ضرباته تطلق صيحاتها عند ارتطامها بجسده، انتهت المبارزة عندما وقع شداد أرضًا محاطًا بآلام جسده، تطلع في الوجوه من حوله فرأى الدهشة تسكن وجوههم، رمى السيف أرضًا وهمَّ يعود إلى غرفته وسط تساؤلاته وتساؤلاتهم حوله، لكنه وجد الضباب يهجم عليهم من كل اتجاه فاخترقت أذنيه الصرخات والاستغاثات.

كان يراهم وسط الضباب يهجمون، ويقضمون الناس من رقابهم، ويضربونهم بأيديهم فتطير قدم وتطير رأس هنا وهناك، ألجمته الصدمة وأعجزته عن الفعل والحركة.

استعاد توازنه فأخرج سيفه، فأطبق يده حوله فأضاء والخاتم ضوءًا أصفر باهرًا، فهزم الضباب وانجلى على الأحداث التي كانت فوق قدرة أبصارهم.

أبصر أحدهم يقترب من ريحانا وهي تحاول الزحف للهروب منه، فقفز قفزة واحدة مخترقًا جسده بسيفه فتحطم جسده إلى قطع صغيرة من الضوء الذي سرى بحدودها وسط صرخة عظيمة، توقف الجميع على إثرها، وريحانا تنظر له، يحدثه خوفها بما يبوح به قلبها فقال لها مطمئنًا: لا تخافي طالما أنا موجود.

نظر حوله فوجد المهاجمين ينظرون له، فصاح أحدهم قائلًا:

– إنه السيف، انجوا بحياتكم.

لاذ الجميع بالفرار، ووقف ينظر حوله على أهل القرية وهم يخرجون من خلف السلال والعربات، ينظرون وسط دموعهم إلى أشلاء ذويهم، انسحب خوفهم فتقدموا ليروا أيهم ما زال حيًا، يتحسسون بعضهم وينتحبون فوق رؤوس آخرين.

جاءه شيخهم ثم قال وهو ينظر إلى الأجساد حولهم مرتبكًا:

– ما هذا؟!!، من هؤلاء؟!!!

لم يستطع الإجابة على تساؤلاتهم بأي كلمة تطمئنهم وتبعد كلاب الخوف عن نهش قلوبهم، فقال الغريب محذرًا حينما قفز إلى عقله شياطين قريته: لا يخرج أحدكم بعد مغيب الشمس.

عصفت الأسئلة والهواجس بعقله حول ما إذا كانوا هم وحوش قريته أم غيرهم، ولماذا أضاء السيف بتلك القوة؟!!، ولماذا هربوا طالبين النجاة لحياتهم عند رؤية السيف؟!!!

أسئلة وهواجس تتصارع برأسه، تصولان وتجولان فيأكلون أخضره ويابسه، أطبق كفيه فوق رأسه ثم جلس أرضًا يضربها بكلتا قبضتيه حتى وجد من يقف أمامه، وجدها ريحانا تستقبله بدموعها، يعلو صدرها ويهبط وسط جسدها المرتجف، نهض باسطًا يده وماسحًا دموعها، محاولًا أن يبث الأمان بداخلها ليذيب حزنها ولكن بلا فائدة، ضمها إلى صدره فازداد بكاؤها، قال لها: "لا تخافي، لن يمسك أذى طالما بقيت حيًا".

حينها هدأ نحيبها، ورفعت رأسها بابتسامة شيدتها وسط أطلال وجهها الحزين، تركت صدره عندما سمعت أحدهم يصرخ قائلًا وسط دموعه:

– لقد هجموا علينا بسببك، بسببك فقدت عائلتي.

هم شيخ القبيلة أن يتحدث، ولكنه توقف بإشارة من يد الغريب فأردف الرجل المذعور قائلًا: ارحل من هنا، ارحل ودعنا وشأننا.

حدثته ريحانا في حدة وقالت:

– لولاه لكنا جميعًا لحومًا فوق مائدتهم.

انحنى الغريب ملتقطًا سيفه ثم مضى على غير هدى، فساقته قدماه إلى البحيرة.

****

في تلك الأثناء كان جماد واقفًا وسط غرفة مضاءة بمشاعل على جانبيها، وتتوسطها نجمة خماسية كتب على أطرافها بعض الكلمات الغريبة بالدم، وفي زواياها جماجم بشرية توضع على أجساد تكاد تكون غير بشرية.

وقف أمام لوحة بها رجل تبث بالشر، وكأنه شيطان يجلس وسط هالة من نار، وكأنه قد خلق منها، وممسكًا بسيف الغريب.

اقتحم الغرفة أحد الحراس وصار يتحدث سريعًا، ويقول:

– لقد ظهر السيف يا سيدي.

أجابه سريعًا:

– بقرية عند حدود مملكة رأس الكريستال.

ثم قص عليه ما حدث، فقال باسمًا:

– استدعوا الكاهن، فلقد قام التمساح المجنح بمهمته.

خرج الرجل مهرولًا، ثم سار جماد صوب عرشه – على هيئة تنين مجنح أسود اللون برأس تمساح، فاتحًا فاه فتبرز أسنانه براقة، جلس فوقه مطلقًا لضحكاته العنان.

****

كان الغريب يجلس عند شاطئ البحيرة، شريدًا، مهمومًا، مثقل رأسه بما مر به حتى الآن، قام بقذف أحجار صغيرة بالبحيرة فيعكر صفو سمائها، ارتفع الماء أمامه عاليًا، فاستل سيفه ووقف متأهبًا حتى انشق الماء عن جماد، وجد الغريب سيفه تضيئ كلماته بلون أحمر، نظر إلى سيفه ثم إلى جماد وهو يقترب منه حتى وقف على بعد خطوتين منه، بدأ جماد الكلام فقال:

– لقد أخبرني رجالي عنك أثناء الهجوم.

كانت كلماته كصواعق على أذنيه، فسكن للحظات مصدومًا وجال بعقله بأن هذا لابد أنه أميرهم، فصاح به الغريب غاضبًا:

– كيف تأتي إلى هنا؟!!!

ثم بحركة خاطفة ضربه الغريب بقبضته ليطير ساقطًا في البحيرة خلفه، لينهض واقفًا فوق مائها ثم يقول له وهو يشير للخاتم بأصبعه:

– أريد ذلك الخاتم، ولكي لا ترفض فإني أعرض عليك عدم مهاجمة القرية ثانية مقابله.

ثم يغوص جماد إلى أعماق البحيرة، فيعود للبحيرة صفاؤها، وقف صامتًا يفكر في كلامه حتى وجد صورة ريحانا ترتسم أمامه فوق صفحة الماء، وهي تستغيث من وحش يهجم عليها،

ضاربًا رقبتها بمخالبه لتتفجر الدماء منها، سيطر عليه فزعه وخوفه عليها فصاح قائلًا: إلا هي، إلا هي!!

ثم نزع الخاتم وألقى به في البحيرة فتولدت دائرة حمراء صغيرة، بدأت من نقطة سقوطه ثم تمددت إلى حدود البحيرة كاملة.

جلس مكانه مطأطئ الرأس، لا يستطيع رفعها من كثرة وثقل همومها، وجد من وضع يده فوق كتفه، نظر عاليًا فوجدها ريحانا وقد عاد إليها شيء من ابتسامتها، نهض ثم قال لها في خوف:

– ما الذي أتى بك إلى هنا؟!!، ألا تعلمين الخطر المتربص بكم؟!

وضعت كفها ملامسًا لوجهه ثم قالت:

– أعلم، ولكنك أخبرتني بأنك لن تدع مكروهًا يصيبني.

ابتسم ثم قال: هيا لنعد إلى القرية.

تأبطت ذراعه طوال طريق العودة، يسمع نبضات قلبها تخترق أذنيه، وأنفاسها الحارة تطغى على برودة كتفه، أوصلها منزلها ثم توجه إلى غرفته حيث أسلم ظهره إلى الفراش فاستعمره التعب فأبحر في محيط كوابيسه الليلية.

****

وسط غرفة كئيبة، تضيئها نار بمشعل معلق على إحدى جدرانها، يقف جماد إلى جوار الكاهن بلباسه الأسود وغطاء رأسه، يرتدي ميدالية على شكل نجمة سداسية تحيط بها دائرة وتتوسطها بلورة قرمزية.

يقفان مترقبان، يتصبب العرق من جبهة الكاهن، وسعادة طاغية تكسو وجه جماد، أمام تابوت أسمر اللون وبه نقوش لكلمات وخطوط محفورة فوق غطائه.

بسقف الغرفة فتحة تظهر جزءًا من القمر الدامي بالخارج، وهو يلقي بدائرة من ضوئه فوق إحدى زوايا التابوت وهي تتحرك مع عبوره فوق الفتحة، حتى وصلت إلى دائرة محفورة بوسط الغطاء فأضاءتها بلون أشعته الحمراء ثم تسلل الضوء إلى الخطوط والأشكال المتصلة بها.

انفتح الغطاء وارتفع عاليًا فظهر من بداخله، بشريًا يضع كلتا يديه بمخالبها الحديدية فوق بعضهما البعض فوق صدره العاري المكسوة عضلاته البارزة بالحديد، أذناه مدببتان وطويلتان بعض الشيء، بعيون كبيرة تبرز كثيرًا عن محجريهما، بلا أنف، وفم يبرز من خلال شفتيه نابان طويلان قليلًا بلون أحمر، ظاهر وسط بشرته السوداء كهيئة جماد ووحوش القرية.

انحنوا له في وقار ثم أخرج جماد الخاتم من سلسلة كانت حول رقبته، أمسك بيد النائم وهم أن يضعه بأصبعه فاستوقفه الكاهن محذرًا:

– سيدي، احذر، عندما يستيقظ لن يتذكرك سريعًا.

لم يعر كلماته وتحذيره انتباهًا، وقام بوضع الخاتم في أصبعه ثم تراجع خطوتين إلى الخلف.

أضاء الخاتم بلون أحمر، انتشر منه إلى ذلك الجسد فغلفه ثم انطلق ضوء باهر أغشى أبصارهم، فحمت أيديهم شدته وسط صرخة عظيمة منه، وهو ينهض من ثباته ناظرًا إليهم بعيون بلون النار.

****

في غرفته بالقرية، استيقظ الغريب فجأة مفزوعًا، مبللًا من عرقه، يعلو صدره ويهبط وسط خفقات قوية من قلبه، حدث نفسه قائلًا:

– ما هذه الصرخة؟!!!

وجد طارقًا على بابه، خرج إليه فوجده شيخ القرية الذي قال له:

– هلا تمشينا قليلًا.

خرج من المنزل وسار إلى جواره، فمرت بهم ريحانا وهي تحمل قدرًا مملوءًا بالماء، فنظرت إليه ثم ابتسمت، رآها الشيخ فتوقف قائلًا: ليس هناك أفضل لك منها.

لم يجبه الغريب فأردف الشيخ قائلًا:

لقد طوقت رقابنا بمعروفك، ولذلك سأدلك على جزء من أحجيتك.

عقد الغريب حاجبيه منتظرًا الشيخ أن يكمل حديثه، فقال الشيخ:

– أخرج سيفك ولف قبضته إلى اليسار.

نظر إليه الغريب متعجبًا لكنه فعل ما أخبره به، فوجد ورقة مخبأة بتجويف بقبضته، نظر إليها ثم إلى الشيخ مصدومًا وجيوش من دهشته تجتاح عقله ووجهه، قال له الشيخ:

– تناولها واقرأها.

أخذها الغريب وبدأ يقرأها:

– عندما تموت الشمس ويتحول النهار إلى ليل، يستيقظ الشيطان الذي ينفث النيران، فيمسك بالعصا والصولجان، فيحكم الأرض والإنسان، الجن والحيوان في ظلم وطغيان ويسود الظلام.

نظر إلى الشيخ وعلى وجهه الآلاف من علامات الحيرة والتعجب، فوجد الشيخ يقول له:

– هذا هو مفتاحك، منه انتهيت وبسببه بدأت.

وجد الغريب الجزء الأحمر بمقبض سيفه ازداد قليلًا، فسأل نفسه متحيرًا: هل لو اكتمل احمرار المقبض سأعرف من أنا؟!!

ثم حدث الشيخ متعجبًا وراجيًا:

– أرجوك لم أعد قادرًا على كل هذه الألغاز، أخبرني بما تعلم.

أجابه الشيخ هادمًا لأحلام قد بناها منذ قليل: هذا هو ما أعلمه.

أردف الشيخ قائلًا:

– هذه كانت هديتنا لك امتنانا على معروفك لكن.....

رفع الغريب رأسه عن الأرض بعد أن أحناها لثقل ما بها، فوجد الشيخ يردف قائلًا:

– لقد علمنا بأن الملك أرسل طالبًا رأسك، وكذلك أهل القرية، وما يظنوه بك بعد هجوم أمس.

قال الغريب مستنتجًا:

– إذًا تريد مني الرحيل.

تنهد الشيخ ثم قال بعد أن أشاح نظره عنه ناظرًا إلى الأمام:

– ليس بيدي شيء، فأنا مسئول عنهم ولا أريد لهم الأذى.

تجمع أهل القرية حولهم، يتهامسون فيما بينهم، وريحانا تقف وسطهم تبكي، قال الشيخ له ناصحًا:

– ليس كل ما تراه العين حقيقة.

صافح الشيخ ثم استدار ماضيًا في حال سبيله، أوقفته ريحانا عندما نادته قائلة: أيها الغريب.

استدار لها فهرولت إليه وهي تنزع عن رقبتها قلادة، ثم قالت:

– أردت أن أودعك وأعطيك هذه.

أخذها فوجدها تحمل النقش خلف فراشه، قالت في صوت حزين:

– إن أردتني فاهمس باسمي ثلاثًا فآتيك.

ثم نظرت إليه في عينيه، فثارت دموعها ضد سلطتها فتساقطت رغمًا عنها وقالت:

– إذا لم تجد حبيبتك فاعلم بأن هنا حبيبة تنتظر، وستنتظر قدومك إليها.

صمت قليلًا فلم يك يعلم ماذا يقول أو ماذا يفعل، فوجدها تطبع قبلة فوق وجنته ثم تنصرف مهرولة تسبقها دموعها.

وضع يده موضع قبلتها، نظر إلى يده وإلى ريحانا ثم ابتسم.

ارتدى القلادة وتابع سيره وبداخله شعوران متناقضان، أحدهما يريد المضي قدمًا في رحلته، والآخر يريده أن يعود فيظل

معهم حتى لا يغير الملك عليهم، أو هكذا أراد إيهام عقله، فبداخله هناك ما يجذبه إلى ريحانا، كأنما هي حبيبته، فكانت هي سبب شعوريه المتصارعين.

ظل سائرًا على غير هدى، يسير بخطوات متثاقلة ثم توقف قليلًا ليفكر في الأمر، ويشاهد الجمال الأخضر من حوله، وأسفل قدميه، ثم يفكر في الجمال الذي تركه خلفه.

يعاود سيره فتهجم على رأسه مشاهد لقتل وتعذيب أهل القرية وإحراق منازلهم، فيثقل همه وحزنه، توقف عن المسير حينما غفل عقله عن قدميه.

حسم صراع عقله فاستدار عائدًا إلى القرية وهو يقول:

– هناك أمر أتأكد منه ثم أعاود رحلتي.

ظل سائرًا حتى أصبحت القرية على مرمى بصره، فصعد إحدى التلال المجاورة، يراقبهم من حيث لا يستطيعون رؤيته فإن احتاجوا إلى مساعدته وجدوه.

كانت الدنيا على شفا لحظات من ظلام جاء مهاجمًا ومستعمرًا، فظهرت النجوم بضوء ضعيف لم يخترق دفاعات الظلام المحكمة إلا تسللًا.

ظل مستيقظًا لا يهزمه نوم، فلم يرد أن يهجموا على القرية وهو نائم فيلومه قلبه، ولذلك لم يشعل نارًا حتى لا يراها أحدهم فيأتي ليرى موقدها.

كانت هذه هي ليلته الأولى التي يخرج بها ليلًا منذ أن عرف شخصيته الحالية، إلا أنه أحس بأن الليل صديقه، كأنما كان بينهما عشق فيما مضى.

ظل هائمًا في صحراء حب يراها الظمآن سرابًا، فإذا بلغه لم يجده، وكلما كانت حبيبته في مخيلته، تقفز صورة ريحانا بعقله وتحل محلها بابتسامتها الطفولية، فكان سريعًا ما يفيق من أحلامه، حائرًا، يسيطر على قلبه وعقله شعور غريب لا يعلم ماهيته فيجذبه إلى ريحانا.

ظلتا تتصارعان وتتناوبا الظهور بعقله حتى انتصف الليل، فكان كل شيء به غريبًا عجيبًا، فبدأ يرى وسط ظلماته في يوم توارى فيه القمر خلف السحاب، كأنما قد أشرقت الشمس ليلًا، فكان يرى الحشرات أسفل التل والحيوانات وسط الأشجار، حتى أنه رأى على مسافة تقرب من الأميال الستة جنود كثيرين، يقف بعضهم للحراسة، والبعض الآخر بداخل خيامهم، قال محدثًا نفسه وهو ينهض: لابد أنهم جنود الملك.

قفز من على التل فلم يصب بأذى، سار خطوات قليلة يتحسس بها قدميه فربما لم يشعر بالألم حين قفز، والآن سيشعر به لكنه لم يشعر بشيء، نظر عاليًا وصرخ قائلًا: من أنا؟!!!

ثم أردف في حسرة: إنني لست إنسانًا، فالإنسان لا يفعل ذلك.

صمت قليلًا حتى هدأت روعته، ثم مضى إلى أولئك الجنود، واختبأ خلف إحدى الأشجار، يسترق السمع فاخترقت كلمات عن القرية أذنيه فنظر صوب مصدرها فوجدهم شخصين بإحدى الخيام بالقرب منه، تبينهما من الظلال التي ألقتها النار المشتعلة بداخلها على قماشها، تسلل إلى هناك حتى وقف بجوراها فسمع أحدهم يقول:

– غدًا صباحا، تتحرك القوات إلى القرية، مولاي يريد ذلك الغريب حيًا.

فسأله الآخر: وأهل القرية يا سيدي؟؟؟

أجابه قائلًا: أبيدوها واقتلوا كل من وجدتم، ولكن اتركوا الفتاة فهي ملك مولاي.

قال الغريب محدثا نفسه وعلى وجهه علامات غضب تتشكل:

– الفتاة!!!!، إنه يقصد ريحانا، لا، إلا هي.

ملأ الغضب كيانه وانفجر بركانه بداخله فتطاير على ما حوله، تحول، فكسا الحديد جسده الذي تعملق، برزت المخالب من يده، لم يدرِ ما هو شكله ولكنه رآه في أعين الرجلين حينما كان ممسكًا برأسيهما ويهشمهما بأصبعيه، ألقى الجسدين بعيدًا، وأطلق صيحة أطارت الخيمة التي هو بداخلها، فبرز وحيدًا، عملاقًا، والجنود أمامه أقزامًا، تنبهوا إليه فألقوا طعامهم وشرابهم وتبدلت ضحكاتهم صرخات تشق الظلام،

أشهروا أسلحتهم بأوصال مرتعدة، وأجساد مرتجفة، هجموا عليه وألقوه برماحهم وسهامهم، لكنها تحطمت عندما لامست جسده، هجم عليهم سريعًا فبدأت الأشلاء تتطاير حتى كف الصراخ، نظر حوله فلم يجد إلا شخصًا واحدًا ينظر إليه بعيون زائغة، عيون تنظر إلى رسول موتها، خمد بركانه وعاد إلى هيئته البشرية، تقدم من الجندي وصاح به غاضبًا:

– أخبر مولاك أن يدع القرية وشأنها وإلا سيلقى مصيرها.

هرب الرجل من أمامه وهو في هروبه يسقط أرضًا فينهض ويتخبط بالأشجار حتى اختفى عندما احتضنته الغابة بين ذراعيها.

وقف الغريب ينظر الى أصابعه، يتحسس وجهه ويديه وعلامات حيرته تطغى على ملامحه، تنهد ثم زفر زفرة من نار غضبه وقال محدثًا نفسه: بأي لعنة ابتليت؟!!!

سكن قليلًا، ينظر إلى الأشلاء المترامية حوله ثم أتبعها بأخرى للضوء المنبعث من مشاعل القرية، ثم قال: الآن تأكدت من الأمر.

امتطى حصانًا كان مربوطًا لإحدى الأشجار، ثم انطلق متابعًا رحلته حتى طلع الصباح واستيقظت الشمس من سباتها فأعادت للكون ألوانه بعد استعمار الأسود له، تراءى له سور على مرمى بصره، فشد من عزم جواده وانطلق صوبه حتى وصله، فوجده شاهقًا، يتكون من أحجار مستطيلة الشكل، طولها يقارب المترين بارتفاع يتجاوز المتر قليلًا، شيد من حجر أبيض وآخر أسود،

يعلوه أبراج مراقبة عديدة تفصل بينها أحجار عشر، وبكل برج يوجد جنديان أحدهما ينظر إلى خارج السور والآخر ينظر إلى داخله، له بوابة عظيمة من حديد أسود اللون، بكل جزء منها نصف رأس بشرية بلون فضي، فإذا أغلقت اكتمل الرأس فيظهر وسط سوادها.

هم بالدخول فأوقفه أحد حراسها الست وقال له في حدة:

– من أنت؟!!!!، ولماذا جئت إلى هنا؟!!!

فقال له الغريب بعد أن ارتدى قناع الخضوع:

– عابر سبيل، جئت أتزود بالطعام.

دفعه الجندي في كتفه، ثم قال له في غلظة:

– لا ترتكب أي حماقة فتقطع رأسك.

نظر إليه الغريب بعلامات غضب بدأت تكسو وجهه، ولكنه سرعان ما أجهض ظهورها عندما تذكر سبب وجوده.

سار قليلًا حتى وجد دكانًا كتب عليه "طعام"، عقد جواده بجوار آخرين أمامه، استدار فوجد أهل المملكة ينظرون إليه بعيون متعجبة، ربما بسبب ملبسه الأسود الخشن في حين أن رجالها يلبسون جلبابًا حيك من قماش بألوان زاهية، ونساؤها يلبسونه مزركشًا، بورود تزينه، مطلقين شعرهم دون حجاب يلجم انطلاقه.

دلف إلى الدكان فوجد صاحبه يرتبه من الداخل ويعدل من كراسيه وموائده.

فقال له صاحبه بعد أن ترك ما بيده:

– كيف أخدمك، يا سيدى؟؟؟

أجابه الغريب سريعًا: أريد طعامًا أتناوله.

ذهب الرجل مسرعًا، وجلس هو تدور عيناه بالمكان حوله حتى حضر الرجل يحمل طبقًا من اللحم وآخر من الأرز، وضعهما أمامه ثم انصرف، تناول طعامه وعندما انتهى أخرج قطعة ذهبية وأعطاها للرجل الذي سر بها كثيرًا.

خرج من الباب فوجد الناس يهرولون، يغلقون الدكاكين ونوافذ منازلهم، الكل يهرول إلى داخل منزله ويغلق بابه خلفه، فلم يبقَ سواه وقلة قليلة انحنوا أرضًا، لم يعلم ما يحدث حتى رأى موكبًا قادمًا وأحد الجنود يندفع صوبه كسهم منطلق، ويصيح به قائلًا: اجلس وأحنِ رأسك، إن الأميرة تمر.

فأجابه الغريب في حدة زادت عن خاصته:

– لا تنحني رأسي لمخلوق.

نظر له الجندي في غضب فكان الغريب أكثر منه غضبًا، ولكنه سرعان ما تبدد وتحول ببصره إلى تلك الفتاة في الموكب وهي تنظر من نافذة تلك العربة الوردية التي تتوسط أربع أخريات بلونهن الأسود، تدلى على عربتها من الخارج قماش حريري بلون عربتها، وتجرها أربع من الخيول السوداء.

تلاقت عيناهما فرآها بقلبه قبل أن تراها عيناه، فصرخ قلبه بكلمات تردد صداها بأرجاء روحه: إنها هي، إنها حبيبتي.

عمت الفرحة أرجاء قلبه فشع حبها نورًا أعمى بصره عن رؤية سواها، مر الموكب ومضى وما تزال عيناه مثبتتان عليه حتى اختفى عن ناظريه، عاد الناس إلى حياتهم، فتحوا دكاكينهم وبيوتهم ولكنه لم يعد إلى حالته ما قبل الموكب.

عاد إليه عقله بعد رحلة في بحور خياله، فرأى الناس ينظرون إليه في دهشة، قطعها بسؤال أحدهم: موكب من هذا؟!!!

سأله الرجل متعجبًا: هل أنت غريب عن هنا؟!!!

أجابه الغريب قائلًا: نعم، أنا غريب.

فأجاب الرجل سؤاله الأول قائلًا: إنها ابنة الملك شنيار.

فعاجله سائلًا: وأين هو قصره؟؟؟

فأجابه الرجل وهو يشير بيده إلى الأمام: بآخر هذا الطريق.

امتطى الغريب جواده مسرعًا ثم انطلق به صوب القصر، وعندما تراءى له توقف وأطلق سراح جواده، وصعد إحدى التلال المجاورة بقفزة واحدة.

****

في تلك الأثناء كان الملك يجلس فوق عرشه وأمامه يقف وزيره ممسكًا ببعض الأوراق، دخل عليهم جندي، انحنى أمامه ثم قال:

– أحد الجنود المرسلة للقبض على الغريب يريد مقابلة مولاي.

قال له شنيار في عجالة: اجعله يأتي.

انحنى الجندي ثانية ثم خرج فقال شنيار مبتسمًا:

– لقد أمسكوا به.

دخل الجندي من الباب فهربت سعادة شنيار حينما وجده يمشي بطيئًا، مرتعدًا، عيونه لا يرتد لها طرف كأنما يري خطرًا أمامه ولا يريد إغماضها فيهجم عليه في غفلة منه.

قال له شنيار في حدة: ما بك أيها الجندي؟!!!

ارتعد الجندي وارتبك فلم يقوَ على الكلام، صاح به شنيار مرة أخرى غاضبًا:

– ماذا حدث؟!!!!، وأين الغريب؟!!!

ارتجف جسده ثم قال في خوف ووهن متلعثمًا:

– القائد قتل، الجنود قطعهم الوحش، والغريب لا نعلم أين هو.

اتسعت العيون وانفتحت الأفواه فربت الوزير على كتف الجندي ثم قال له في لين:

– احكِ لمولاي كل شيء من البداية.

نظر الجندي إلى شنيار ثم إلى الوزير وقال بجسد يرتجف:

– كنا نتناول طعامنا حينما سمعنا صرخات قائدي ونائبه، بعدها تطايرت الخيمة من صيحته فوجدناه أمامنا، حاولنا قتله ولكن أسلحتنا لم تخدشه، وفي بضع لحظات قطع الجميع إلى أشلاء.

صمت الجندي محاولًا التغلب على خوفه، وشنيار ووزيره يزدادان ترقبًا وإنصاتًا، ثم أردف الجندي قائلًا:

– بعد ذلك تحوّل بشريًا وقال لي: "قل لمولاك أن يترك القرية وشأنها وإلا سيلقى مصيرها".

وضع شنيار يده فوق رقبته يتحسسها، ثم سأل الجندي في لين:

– ما هو شكل هذا الوحش؟

قال الجندي وهو يشير بيده على أجزاء من جسده:

– إن طوله فاق الأمتار الأربعة، جسد بشري من المعدن، مخالب حادة كالسيوف وعيون بلون النار.

أشار له شنيار بالانصراف فلقد علقت الكلمات بحلقه، ولم يستطع إخراجها، فانصرف الجندي ومازال على أوصاله المرتعدة، تبعه الوزير بعينيه حتى خرج ثم التفت إلى شنيار قائلًا:

– بالتأكيد هو الغريب.

شنيار غاضبًا وهو يلقي بطبق به فاكهة من فوق منضدة وضعت أمام عرشه:

– الغريب ثانية، من هو هذا الغريب؟!!!

صمت قليلًا حتى خفت غضبته، استدار إلى الوزير ثم قال:

– هل هناك علاقة بين السيف وذلك الوحش؟!!!

صمت الوزير ثم قال بعد قليل من التفكير:

– هناك خرافة تقول بأن الذي سيقتل شيطان الانكليس بعد استيقاظه هو الوحش الآدمي ولكن.....

صمت الوزير قليلًا فصاح به شنيار غاضبًا:

– ولكن ماذا؟!!!

الوزير مجيبًا في عجالة:

– صبرًا مولاي، الخرافة تقول بأنهما سيقتلان بعضهما البعض.

ابتسم شنيار ولمعت عيناه فقال:

– من الجيد أن يقتلا بعضهما البعض فعندما أحصل على مرادي لن يقف أحد أمامي.

الوزير متسائلًا: هل نترك القرية وشأنها؟!!!

شنيار ساخرًا: وهل نستطيع هزيمته؟!!!

هز الوزير رأسه يمينًا ويسارًا، ثم قال في حسرة: لا، يا سيدي.

شنيار: إذا اتركوها وشأنها حتى أستعيد الرأس.

****

حلّ الظلام فحان موعد الذهاب، قفز من فوق التل أرضًا وهرول بسرعته إلى السور حتى تبقت بضعة أمتار، فتوقف ينظر إلى حراس القصر، فوجد أمام بابه أربعة؛ اثنان يقفان والآخران يسيران أمامهم، وفوق الباب على السور اثنين، وبكل عشرة أمتار يوجد جندي، وهناك أربعة حراس يدورون حول سور القصر، انتظر حتى ابتعد أولئك الأربعة قليلًا وهرول إلى السور، ألصق جسده به، وبعد لحظات ابتعد قليلًا ليرى أين يقف الحارس الذي فوقه، انتظر حتى أدار وجهه للجهة الأخرى فقفز إلى أعلى فتجاوز السور وهبط أرضًا ولكن هبوطه استرعى انتباه الجندي؛ لأنه هبط فوق عشب يابس، استدار الجندي ونظر إلى مكان الضوضاء فلم يرَ شيئًا، أخذ شعلة ووجهها صوب مكان الصوت، ونظر ثانيةً، ولكنه لم يرَ شيئًا.

سأله الجندي عن يمينه قائلًا: أهناك شيء بالأسفل؟

التفت له الجندي وقال له نافيًا: لا، لا شيء.

وضع النار مكانها وعاد لموقعه، خرج الغريب من مخبأه أسفل السور ثم هرول مخترقًا حديقة القصر، رآها من بعيد تقف بشرفة غرفتها، ظل يقترب منها حتى وقف أسفلها، تطلع بعينَيه

وثبتت على وجهها، فاختلط عليه الأمر فسأل نفسه: "هل ضوء القمر ينعكس على وجهها، أم أن ضوء القمر مستمد من وجهها؟".

لم يجد إجابة، ولم تكن تعنيه، فيكفيه أنها هي حبيبته، يريد أن يكلمها، يلمسها، يقبِّلها، لا بل يحتضنها؛ ليحس بدفء صدرها حتى يهدأ قلبه الذي كاد أن يخرج ويذهب لها، لكم كان ذلك غريبًا فإنها حبيبته فعلًا كما رسمها، فسأل نفسه:

– أمن الممكن أنها كانت موجودة في ماضيّ المنقضي، وكنت أحبها، ولذلك رسمتها وأحببتها ثانيةً أم ماذا؟ إذا قابلتها سأعرف، فإن تعرفت عليّ يكون ظني صائبًا، وإن لم تتعرف عليّ لم أكن خاسرًا.

****

في هذه الاثناء كانت العرافة تقف أمام منزل ريحانا وهي تطرق الباب، لتفتح لها ريحانا التي تقول لها في صوت تعلوه نبرتها القلقة: هل حان الوقت؟

أومأت العرافة برأسها فخرجت ريحانا وسارت بجوارها، تخترقان طرقات القرية حتى وصلتا إلى المعبد المترامي على التل المطل على البحيرة، حيث ثمانية من الكهان يلتحفون السواد فيغطي أجسادهم كما يغطي رؤوسهم، يقف كل منهم أمام عامود من حجر أسود يتلألأ تحت ضوء المشاعل التي تحيط بحجر أبيض، شبه شفاف يتوسطهم؛ وفوق كل عامود تستقر بلورة خضراء.

ذهبت ريحانا ووقفت فوق الحجر الأبيض وذهبت العرافة ووقفت أمام تمثال أسود لرجل يجلس القرفصاء وتعلو رأسه بلورة حمراء.

تحول القمر إلى اللون الأحمر فسقطت أضواء حمراء اتجهت إلى الكريستالات الخضراء، فأضاءت وانطلق من كل واحدة شعاع، التقوا جميعًا فوق ريحانا، ثم انطلق منهم شعاع واحد اندفع تجاه صدرها فرفعها إلى الهواء، وانطلقت منها هالة ضوئية ثم عادت إلى مكانها السابق. انحنى الجميع وقالوا في صوت جهور: ساحرتنا العظيمة.

نظرت ريحانا إلى العرافة وقالت لها في حزن وهي تغالب دموعها:

– الغريب يا جدتي.

أومأت لها العرافة برأسها، فلقد فهمت ما ترمي إليه.

****

بحديقة القصر، وجد الغريب القمر يتحول للون الأحمر، فقفز إلى عقله كلام العرافة حول ريحانا، فرفع نظره إلى السماء، تراءت إليه ريحانا، نظر لها ثم قال مبتسمًا:

– مرحبًا ساحرتي العظيمة.

ابتسمت واختفت، فعاد مفكرًا في كيفية الحديث مع حبيبته، ولكن الحراس لم يمهلوه ذلك، فوجدهم يندفعون تجاهه وهم يقولون: أنت هناك.

أحاطوه بالسيوف والرماح، نظر لأعلى فوجدها تنظر لأسفل فتلاقت عيناهما ثانيةً، نظر إلى الجنود حوله ولم يقاوم رغبتهم في اقتياده إلى ملكهم.

قال أحد الجنود غاضبًا وهو يلمسه بحربته: هيّا تحرك.

علا الضيق وجهه فأخبره محذرًا:

– إن لمستني ثانيةً سأجعلهم يجمعون أشلاءك من حديقة القصر.

نظر الجنود كل منهم إلى الآخر، ثم اقتادوه إلى شنيار، دخل حجرة العرش فوجد الجنود على كلا الجانبين، والملك جالس على عرشه وعن يمينه يقف وزيره، تقدم أحد الجنود فانحنى أمام الملك، ثم قال وهو يشير إلى الغريب:

– مولاي، لقد اقتحم هذا الغريب القصر.

نهض شنيار فزعًا عن كرسيه وقال غاضبًا: كيف هذا؟

هبط شنيار وسار إليه والجنود ينحنون أمامه، وقف أمامه، وقال له في غضب:

– من أنت؟ وكيف تجرؤ على اقتحام قصري؟!!!

أجابه غاضبًا:

– لقد سئمت هذا السؤال؛ لا أعلم مَن أنا، فلا تسألني ذلك ثانيةً.

قالها شنيار في غضب:

– ألا تعلم من أنا حتى تكلمني هكذا؟ فلو أردت قتلك لقتلتك الآن.

قال له في سخرية:

– لا تستطيع، فلو كنت تستطيع لقتلني رجالك عند القرية.

اتسعت عينا الملك عن آخرهما، وانفتح فاه، وتقهقر بضع خطوات إلى الخلف، جاء الوزير وسار فوقف بجوار الملك، قال الوزير مؤكدًا:

– إنه أنت، الغريب، حامل سيف الشيطان.

سأله في عجب: أي شيطان؟

الوزير مجيبًا: شيطان الانكليس.

وجد قبضة سيفه تضيء باللون الأحمر، أخرجه قليلًا لينظر إليه فوجد الأحمر قد ازداد قليلًا نظر إلى الوزير، وسأله:

– أين أجدهم؟ وأين توجد بلاد النسيان؟ وأين مستنقع الشيطان؟

قالها شنيار في سخرية: لماذا تظن أننا سندلك؟

فأجابه في حزم: لتأمنوا شري.

ثم استل سيفه فظهر براقًا أغشى أبصارهم للحظات، استل أحد الجنود سيفه ليقوم بهجوم غير مجدٍ، ولكن إشارة الملك أجلت موته لميعاده، قال الوزير بصوت جهوري: إنه هو، سيف الشيطان.

سأله مستنجدًا: وماذا تعرف عن هذا السيف؟

قطع الملك تساؤلاته بقوله: لماذا اخترقت قصري؟

قال في لين وهو يعيد سيفه لغمده:

– لأنني أحب ابنتك وأريدها زوجتي.

ضحك الملك مقهقهًا فضحك الحضور، عمّ المكان الصمت حينما توقف شنيار عن الضحك وقال فى سخرية:

– تتزوجها!!!! وهل تقدر على مهرها؟

قال له في جديه: سمِّ ما شئتَ فأحضره لك.

نظر الملك لوزيره، ثم نظر له وقال:

– إن هناك شيئًا إذا أحضرته لي أعطيتك ابنتي.

سأله متعجلًا: وما هو؟

أجابه متمهلًا: رأس الكريستال.

قفز إلى رأسه حديث العرافة حينما قالت "سيطلب منك مهرًا غاليًا، فإن حصلت عليه فضع سيفك به وسيذكرك بالضد الأول من ماضيك".

سأله في عجالة: وأين هي؟

أجابه شنيار مؤكدًا: بحديقة الشيطان.

سأله مستوضحًا: وأين هي حديقة الشيطان؟

أجابه غير موضح: سأدلك على طريقها.

أخبره طالبًا: ولكني أريد شيئًا تحققه لي قبل الذهاب.

أريد أن أحدث ابنتك، لأعلم شيئًا يجول بصدري.

أخبره مجيبًا: حسنًا ولكن في الصباح.

أشار شنيار إلى أحد الجنود فأتاه ثم قال له:

– خذ الغريب ودله على غرفة الغرباء.

سار الغريب إلى جواره وهو شارد العقل، غير مصدق بأنه تفصله عن حبيبة لطالما تاق إلى رؤيتها بضعة جدران وبضع سويعات، احتل رأسه صورتها وهي تنظر إليه من نافذة عربتها، ظل شاردًا حتى أيقظه الجندي من شرود عقله وقلبه بقوله:

– اسكن هنا ولا تخرج حتى آتيك في الصباح.

دلف إلى الغرفة فوجدها فسيحة، استعارت نوافذها وستائرها التي تغطيها وبابها لونهم من لون جدرانها، بفراش أنيق ومرتب يتوسطها، يغطيه قماش ذهبي، وطبق من الفاكهة موضوع على منضدة سوداء أمامه.

****

بالقرية، كانت ريحانا تجلس بجوار كوخ العرافة، وأمامها بلورة من ضوء يظهر بها الغريب مستلقيًا على الفراش بغرفته بقصر شنيار، يكسو الحزن وجهها، ولكنه لم يهزم نظرتها الحانية.

طرق أذنيها صوت اصطدام فوقها فنظرت لأعلى لتجد تنينًا يحاول اختراق سقف غير مرئي شيدته ليقي القرية أي خطر يتربصها، تجمع العديد منهم وأطلقوا نارهم صوب السقف، ولكنه تصدى لهم فكانت محاولتهم بائسة.

ارتفعت ريحانا إلى السماء مخترقة السقف ووقفت أمامهم، أطلقوا نارهم صوبها ولكنها توقفت أمامها لتتجمع في كرة نارية آخذة في الزيادة ثم تنفجر لترتد نيرانهم إليهم وتمسك بأجسادهم فتحولهم إلى شذرات تناثرت ثم اختفت.

حلقت ريحانا إلى مدخل القرية، وهبطت أمام جنود وتنانين محتدشة، فسألتهم:

– من أنتم؟؟؟، وماذا تريدون؟؟؟

أجابها أحدهم ساخرًا:

– مبعوثو موتكم.

رددت كلماته في سخرية فاقت خاصته، فقالت:

– مبعوثو موتنا!!!!

أشارت له ريحانا بأصبعها فأتى إليها هائمًا في الهواء، انشطر نصفين جراء ضوء خرج من أصبعها ثم انطلق الضوء من كل خلية بهما كالشمس الحارقة فأعمت عيونهم وأذابت أجسادهم، فلم يستطيعوا الصراخ أو الاستغاثة.

وقفت ريحانا تنظر إلى رمادهم المحترق أمامها، التفت بشكل دائري حول نفسها واختفت وسط ضوء ظهرت به أمام عرش جماد ووالده المبعوث حديثًا.

نظرت ريحانا إليهما في غير اكتراث إلى دهشتهما وخوفهما فقالت:

– لقد ارتكبتم جرمًا كبيرًا بهجومكم على قريتي، هذه المرة سأكون رحيمة، ولكن القادمة سأدمركم.

فقال والد جماد في خوف وذل:

– ساحرة الشمس اغفري لنا خطأنا.

اختفت ريحانا وسط ضوئها فالتفت جماد إلى والده، وسأله في تعجب:

– لماذا أنت خائف منها هكذا؟!!!

أجابه والده وقال:

– إنها ساحرة الشمس، لا قبل لنا بمواجهتها سوى بالسيف.

****

جاء الصباح ومازال الغريب على حاله حتى جاءه طارق فوجده أحد الجنود قد جاء ليصحبه لرؤية حبيبته، سار إلى جواره يدور بعقله الآلاف من الأسئلة والكلمات التي حفظها بقلبه ليخبرها بها، دق قلبه عاليًا، سريعًا كلما اقترب من غرفة العرش، وبدأت سعادته في الظهور بأرجاء وجهه، حاول عبثًا أن يخفيها دون جدوى.

يزداد خفقان قلبه شيئًا فشيئًا، وأصبحت الألوان في عينيه أكثر وضوحًا وجمالًا حتى تجسدت حبيبته أمامه وهي تشير إليه ليأتي إليها، رآها وهي تدخل غرفة العرش والتي وصلها فخطى أولى خطواته بها فرآها قلبه قبل أن تراها عيناه، رفع بصره متعجلًا فتكحلت عيناه برؤيتها. فمنذ الوهلة الأولى التي وقعت عيناه عليها لم يشحها عنها، فدق قلبه دقات سمع صداها بأرجاء المكان حوله، فلم يرد أن يضيع لحظة من وقته القليل الآتي دون إشباع ظمأ عينيه من رؤيتها.

سار صوبها، معلقًا نظره بها، أسيرًا في بحر هواها، وتائه في جمالها حد الثمالة، وقف أمامها ناظرًا إلى وجهها، فازداد نبض قلبه، فأطلق كلمات كسيل جارف جرف معه كل مشاعره،

ولكنه توقف عند حدود شفتيه فأعجزه حسنها عن الكلام، فعوض قلبه عجزه وزاد من خفقانه.

قال محدثًا نفسه:

– الآن هي أمامي كأيامنا الخوالي، ولكنها جسد فإن كلمتها كلمتني.

وجدها تنهض عن كرسيها دون أن تنظر إليه، وسارت لخطوات قليلة وهو يتبع خطواتها المرتبكة، فتهز أصابع يديها المتشابكة يمينًا ويسارًا ثم وسط كلمات مبعثرة تدور برأسها، قالت:

– من أنت؟؟؟

رغم كرهه لهذه الحروف التي تكون ذلك السؤال البغيض إليه إلا أن وقعها على أذنيه كان جميلًا، كان فرحًا مسرورًا كمن كان به صمم، وعاد إليه سمعه فكانت هذه الكلمات أول ما سمع، فلم يستعذبها كما استعذبها الآن، هم قلبه بالإجابة فسبقه لسانه بقوله: "لقد حان دوري"، فقال لها:

– لقد كنت أمنّي نفسي بسماع صوتك، لطالما حلمت به وتخيلته عذبًا، لكنه فاق تخيلي ومع ذلك فأنا لا أعلم من أكون.

صعدت الدماء على وجنتيها ورسمت ملامح خجلها، فطأطأت رأسها ثم قالت:

– إذًا، ماذا تعلم عن نفسك؟؟؟

أجابها متلهفًا بكلمات تحمل بين حروفها حبه، فقال:

– لا أعلم عن نفسي سواك.

أخرج صورتها من بين طيات ملابسه وأعطاها إياها، نظرت إليه لتسأله عيناها عنها، وعلامات من قلق وحيرة تداعب وجهها، فقال لها مبتسمًا:

– انظري إليها.

مدت يدها في تردد، أخذتها ونظرت بها، تبدلت ابتسامة خفيفة كونتها كلماته إلى علامات من حيرة شديدة، فكانت تنظر إليها ثم تنظر إليه، فسألته وسط تعجبها:

– كيف رسمتني وأنت لم ترَني إلا اليوم؟!

تنهد ثم أجابها:

– رسمك قلبي من نسج خيالي. فأنا أحبك قبل أن أراكِ. إنك أجمل ما بي، وأنا أقبح ما بك، فهل تقبلين بقبيحك أن تكوني ملكة فوق عرش قلبه.

تكونت حبات من لؤلؤ خرجت من ينبوع حنانها، فتدحرجت فوق خديها، فأحس قلبه ممزقًا، وبدأ الحزن يكسو وجهه فقال لها:

– أرجوك لا تبكِ، فحياتي لا تقارن بقطرة من دمعك.

أدارت وجهها عنه، ثم قالت وسط حزنها:

– لم أتوقع أن يحبني أحد هكذا.

ذهب إليها ثم أمسك برأسها، ماسحًا دموعها، ثم قال لها وسط صرخات قلبه:

– دموعك نار تشتعل بروحي، فلا تزيدي نارها نارًا، أعيدي إلى وجهك ابتسامته، لتخرجيني من بئر مظلم ألقتني به دموعك.

بدأت ابتسامتها تستعيد أراض قد تنازلت عنها لحزنها فقالت:

– لا أخفي عليك أمرًا، فعندما رأيتك بالقرية أحسست كأني أعرفك من قبل، ثم تأتيني اليوم ويخبرني والدي بأنك تريد الزواج مني.

سألها خائفًا وراجيًا:

– وهل ترفضين؟

أجابته نافية:

– لا أعصي لوالدي أمرًا.

قال لها سريعًا بكلمات تغلفها رهبة أن تهدم جدار خوفها من والدها:

– لا شأن لوالدك، فإن لم تقبلي لم يرغمك أحد، وإن قبلت جعلتِني ملكًا متوجًا.

طأطأت رأسها في خجل ثم قالت:

– طالما ستحضر مهري، سأكون زوجتك.

غمرت السعادة جسده ووجدانه، وأشعت نورها بقلبه وعينيه، فرقصتا طربًا، فأبصر الدنيا كمن يبصرها لأول مرة، كمن كان أعمى وأبصر فرأى أن هناك ألوانًا أخرى أكثر من الأسود الذي أعماه عن رؤية جمالها.

ثم أردفت فقالت:

– لقد أخبرتني العرافة حينما كنت صغيرة بأنني.....

قطع حديثها صوت والدها وهو يقول:

– ها قد لبيت طلبك، الآن حان دورك.

قال له وهو يحاول استخلاص كلامه من غضبه المكتوم:

– لك ما تريد.

سأله مستفهمًا:

– وكيف سأصل إلى حديقة الشيطان؟؟؟

أجابه شارحًا:

– سيصحبك الدليل إلى المستنقع، ولكنه سيتركك هناك وينتظر عودتك.

فسأله متعجبًا:

– وكيف سأصل لها وحدي؟

أجابه واصفًا:

– عندما تجتاز المستنقع اسلك المشرق ليومين، عندها ستصل إليها.

دخل فرد ووقف بجواره، فقال شنيار له:

– هذا هو دليلك، لن يفارقك حتى تصل إلى المستنقع.

التفت إلى حبيبته عن يمينه وقال لها:

– ما اسمك؟

حبيبته وسط ابتسامة زادت جمالها حسنًا:

– ستعرفه عندما تعود من أجلي.

سألها متلهفًا:

– إذًا بماذا أناديك؟

طأطأت رأسها ثم أجابته فى خجل:

– كما كنت تناديني سابقًا، حبيبتي.

رفعت رأسها ثانيةً فصمت قليلًا ليأخذ منها زادًا يعينه على سفره، استدار وبدأ السير بجوار الجندي، سمعها تقول:

– إن العرافة أخبرتني بأن حبيبي سيأتي إليّ من عالم آخر دون أن أراه من قبل، ودون أن يراني.

استدار إليها مبتسمًا ثم تابع سيره خارجًا من القصر.

****

لم يكن يعلم وقتها بأن جماد ووالده يقفان أمام بلورة سحرية، ينظران له والسرور والغبطة يطلان من عيونهما.

والده مسرورًا:

– قم بالاستعداد لهذه الزيارة المنتظرة.

جماد مقهقهًا:

– إنه لا يعلم ما سيحدث له حينها.

والده بعد أن كست الصرامة وجهه:

– دعه جاهلًا حتى نحصل على مرادنا.

ليضحك جماد ضحكة ساخرة مدوية.

تمت